العمّال الصالحون

بقلم

الياس ابي شبكه

بيروت

المطبعة الكاثوليكية

١٩٢٧

مقدّمة

الى الأمّهات العاملات والآباء العاملين ، الى شباب هذا العصر وفتياته ، الى النفوس المتخلّقة باخلاق التضحية والواجب اقدم هذه الرواية .

الياس ابي شبكه

١

كان لبيب راغب ولداً في العاشرة من سنيه، جميلَ الطلعة، عذبَ النظرات، يميلُ عن الوحدة الى الزهو واللعب؛ وكان لهذا الفتى صديقٌ من اترابه يدعى فريداً، كريهَ المنظر، مجعّدَ الوجه، تمتُّ ملامحهُ الى ملامح القردة أكثر مما تمتُّ الى ملامح الانسان. ففي يومٍ من اواخر ايام نيسان كان الفتى لبيب يلعب في الحديقة فنادى اليهِ صديقه فريداً اولاً وثانياً بدون أن يسمع جواباً لندائه.

كانت أشعّة الشمس تُلهبُ بحرارتها المحطّة الصغيرة ذاتَ الجدران البيضاء القائمة في وسط ريفٍ يبعدُ نحواً من الفي متر عن بلدة جونية.

في تلك الآونة كان المدير راقداً نصف رقدةٍ على الدكّة وقد نهكهُ التعب وحمّلهُ القيظ ما لا يطيق؛ إلّا أنَّ الحديقة حيث كان لبيب ابن المدير ينادي رفيقهُ بصوتٍ مرتفع، كانت لا تزال مرطّبةً بأنداء الفجر، وكانت رطوبةٌ معتدلة تتساقط من الاغصان المورقة وتتصاعد من الاعشاب الكثيفة أو من الازهار العطرة تحت عناقيد الأزدرخت والقصاص المضطربة لدى خطرات النسيم.

— فريد! فريد! ألا تأتي؟ لقد عزفتُ أمثولتي على الأُرغن وتلقيت أمثولةً غيرها وأصبحتُ حرّاً طليقاً، فتعال نلعب!

في تلك الدقيقة خرج فريد من منزلهِ القائم على مقربة من الحديقة وأسرع راكضاً الى لبيب وقال له بصوتٍ تتخلّلهُ رعشة الخوف: «يجب عليَّ أن أجيء بأعشابٍ لغذاء الارانب قبل ان تُطلق حرّيتي.»

– إنك لابله! فلا أغربَ عندي من ان اراك مهتماً جدَّ الاهتمام بتلك الارانب المضحكة.

– ولكن ما العمل؟ اذا عرفت الأمُّ أني لهوت باللعب عن الارانب فلا تتردَّد عن صفعي وتوبيخي.

– إنَّ الأمَّ سالم غير أمـكَ فهي امرأة أبيك! ثم إنها لن تدرك أنك لهوت؛ واذا أردتَ ففي الحديقة أعشاب لا تجد مثلها في مكان آخر.

فأطاع الولدُ كلام رفيقه، وزحف على قدميهِ ورجليهِ الى أن بلغ الحائط فتسلّقه الى الحديقة؛ فقال لبيب: «أيَّ نوعٍ من الالعاب تختار؟ — ألا تفضّل لعبةَ الفوارس؟ إذن فألقِ يديك على الاعشاب محنياً ظهرك وكنْ فرسي.»

كان فريد دائماً يشغل وظيفة الفرس. ولماذا؟ ذلك لان النظام يوجب على أبناء العمّال أن ينزلوا في كل حين عند إرادة أبناء الرؤساء..

كان العشب في تلك الحديقة كثير النضج طافحاً بمياه النبات، إلّا أنَّ العوسج وفروع الشجيرات كان يحتبك بعضها ببعض وتتجاوز الادغـال الى بعض الجهات الجبلية كأنّما هي غابةٌ عذراء لم تمرَّ عليها شفراتُ المناجل؛ وكانت الآبار تنتصب فوقها الأشنة البيضاء كسطوحٍ صغيرة من التوتيـا المعدنيّة؛ وأشجار الورد تمزج غصونها المشعَّثة بفروع الراتينج المظلمة؛ وأريج الأزدرخت الزكيَّ والزُعرور المتليّ بعسل أزهـارهِ يجذب اليهِ أسراباً من النحل كثير العدد.

نهك التعبُ ذينك الولدين فجلسا يستريحان على أحد الحجارة، في حين كان قطار الساعة الثالثة والنصف يصفر في الابعاد معلناً قدومه. وبعد هنيهةٍ شخص لبيب الى جهة القطار وقـال: «هوذا الكاهن! لقد عرفتُ منذ نهار السبت أنهُ سيذهب لزيارةِ أسقفهِ الساكن في مدينة «بيروت» ويقولون إنَّ كاهناً آخر سيخلفهُ، وترى والدي شديد الاسف كثير الشجون؛ فمَن يا تُرى

يحلُّ محلّه في إعطائي الدروس العربية؟ لا شكَّ في انَّ والدي سيرسلني الى المدرسة بعد ذلك. أليس من الحزن أن أُسجن في المدرسة يا فريد؟»

فأجاب الولد بعد أن أطلق زفرةً من صدره: «إنك لشديد الغرور يا صديقي، ولو تبصّرت قليلاً لرأيت أن المدرسة أمٌّ تسقي ولدها لبان العلوم التي لا غنى له عنها.

آه! لو يتّسع لي أن أتعلم! ولكنَّ المدارس لم تشيّد لمثل فريد!... لانهُ بائسٌ يا صديقي!»

فأجاب لبيب: «اني أعرف ذلك؛ فانت فقيرٌ لا مال لديك، ولو لم يكن والدي شديد العطف على أبيك لكنتَ اكثر فقراً مما انت عليهِ... أبلغك ماذا حدث الأحدَ الماضي؟»

— لا!

فاستطرد لبيب قائلاً: «لقد أبصر والدي والدك سكران حتى الموت، منطرحاً على السلك الحديديّ بالقرب من مفتاح القطار، وكان من واجب والدي أن يطردهُ من الشركة، إلّا انهُ لم يفعل؟... أتفهم؟... إنَّ التصرُّف السيء الذي يتصرّفهُ والدك لمّا يدعو الى خطرٍ عظيم؛ ومن الجهل أن تستبقي الشركة عاملاً سكّيراً في عداد عمّالها...»

فخفض فريد رأسهُ الى الأرض، فأكمل لبيب حديثهُ فقال: «غير أنَّ والدي عفيفُ الضمير شفيقٌ ففكّر فيما تأول اليهِ عائلة سالم لو طُردَ سالم من العمل؛ وما لبث ان غفر لهُ زلّته؛ ولكن اذا عاد والدك الى مثلها!...»

فقاطعهُ فريد قائلاً: «سوف يعود الى ما كان عليهِ ولا أرى مندوحةً من طردهِ، وسوف نشقى طويلاً يا صديقي.»

فأثّر هذا الكلام في نفس لبيب تأثيراً عظيماً حتى إنهُ لم يملك نفسهُ من ذرف دمعةٍ على خدّه فقال: «هل ذقت طعاماً في هذا النهار يا فريد؟

سمعتُ والدي يقول مرارًا إنَّ امرأة أبيك الشرسة ستُميتك جوعاً.» قال هذا وأخرج من جيبه قطعاً من «الشوكولاتة» فقال فريد بلهجةٍ تتخللها عزةُ النفس: «أجل، لقد أكلت؛ فالأمُّ سالم لا تمنع الطعام عني ولكنها تقدم لاولادها ما لا تقدمه لي؛ أتجد غرابة في ذلك؟»

في تلك الساعة دخل القطار الى المحطّة فأسرع الولدان الى الرصيف ليتفرّجا على القادمين.

كان سالم ورفاقهُ يشحنون البضاعة وينزّلونها، في حين كانت عجلات النقل قادمةً لتُقلَّ الاحمال الى اماكنها. أمّا بطرس موزّع البريد فقد كان يذهب ويجيء مستشيراً بنظرهِ الاوراق التي بيدهِ؛ وأمّا المدير فقد كان يُلحُّ على العمّال في الإسراع بما عُهدَ اليهم، مُسترئياً من وقتٍ الى آخر ساعتهُ الذهبية. عند هذا تقدّم منهُ أحد المسافرين حاسراً وقال لهُ بصوتٍ تراودهُ اللكنة: «أنا رهين إشارتك يا سيدي المدير!»

— من أنتَ؟

— أنا عزيز الذي عُيِّنتُ موزّعاً للبريد مكان داود. فقطب المدير حاجبيهِ وقال: «ولكنَّ داود لا يودُّ أن يستعفي لان لهُ مصالح تضطرهُ الى البقاء في الشركة. فقد اشترى أرضاً وبعض كروم في هذهِ الجهة استوطن فيها مع امرأةٍ لهُ هي أبرع خيّاطة في جونيه. كان الاحرى بك ألا تعجل في قدومك قبل الاطلاع على هذا الامر.»

فأجاب عزيز بعظمة: «إنَّ من كان مثلي موظفاً قديماً في الشركة لا يجد بُدّاً من النزول عند إشارة مديره، فعندما قال لي المدير يجب أن تذهب لم أجد مندوحةً من الاطاعة، فهيأت أمتعة منزلي بأسرع ما يمكن وامتثلت للأمر.»

ففتل المدير شاربيهِ متذمرًا ودمدم قائلًا: «إنَّ هذا لامرٌ مضجر فرأيي هو أن لا يستقر أمرك قبل أن تنتظر النتيجة التي يأول اليها أمرُ داود. فابق

أمتعتك في عجلة السكة وانزل موقتاً في فندق المحطة عند يوسف...

فقاطعهُ عزيز قائلاً : «واحسرتاه إنني لم أجئ وحدي يا حضرة المدير...» قال هذا وبسط ذراعيهِ نحو غرفة الانتظار حيث كان ثلاثة أشخاص ينتظرون بفروغ صبر، ثم استطرد قائلاً : «هوذا ولدي نبيه وابنتي حوّاء وامرأتي... وأمتعتي...»

فحوّل المدير نظرهُ الى غرفة الانتظار فرأى قرني مَعَز بارزين بين أخشاب صناديق أربعة، وآذانَ أرانبَ عديدة تُنصَبُ فوق أعراف جماعةٍ من الديوك والدُجج، وأبصر فوق ذلك خرطومَ خنزيرٍ ينشق بين طرفي قطعتين من الخشب الصُلب كُتِبَ على إحديها بحروفٍ سوداء :

خنزير محزَّم

فقال في نفسهِ : «هذا حوش للحيوانات لا بل حديقة للوحوش !» ثم بدر منهُ التفاتة فرأى ابن عزيز عاكفاً بعنايةٍ على خمس شجيرات من الورد غُرست في خمسة براميل من الخزف . فقال عزيز : «إنّ البهائم عونٌ للانسان في حياته والازهار هي زينة البؤساء، أليس كذلك ؟...»

عندما دخل الرجلان الى غرفة الانتظار كانت ابنة عزيز، وهي فتاةٌ في السادسة عشرة من عمرها، قد ركضت الى النافذة المشرفة على فسحة المحطّة وصرخت بصوتٍ مذعور : «أين هي بلدة جونية أراني هنا في سهلٍ مقفر لا مأوى فيهِ ولا منزل .»

فأجابها المدير : «إنّ المآوي لكثيرة عند «أديب» ثم إنّ الذي يجرّ وراءهُ أمتعةً كثيرة العدد كهذه لا يجب عليهِ أن يُبطئَ في إيجاد مسكن يأوي اليهِ . إني أبصر وراء هذه الالواح الزجاجيّة سحنة معترٍ لا أشكُّ في أنهُ يقودكم جميعاً الى حيث تجدون مأوى لكم» ونادى فريداً فامتثل أمامهُ

خجلاً ينظر خلسة الى قدميهِ العاريتين فقال المدير: « إذهب يا فريد ودُلَّ السيّد عزيزاً الى منزل اديب. فتقدَّم الولدُ قبيلة عزيز واجتاز بها الفسحة فالطريق، وفيما هم سائرون سأل الموظف الجديد فريداً عمَّن هو اديب فاجاب الولد انهُ زرّاع في البلدة بنى منزلاً كبيراً أجرَ معظم غرفه لعمال السكّة الحديديَّة حتى أُطلق عليهِ اسم « منزل عَمَلة السكّة ».

كانت جماعة من النساء تشتغل أمام المنزل في ظلال شجرة كبيرة من اشجار الطَّلح، ولم يكدْ عزيز وجماعته يصلون الى مقربةٍ من مأوى اديب حتى وقفَ النساء ينظرنَ بدهشةٍ الى ذلك الموكب؛ عندئذٍ انتصبت سيّدة المنزل على عتبة الباب وسألت فريداً قائلةً: « من هؤلاء القوم يا فريد؟ » فأجاب الولد: « إنهم من المستأجرين يا سيّدتي وقد خلفوا السيّد داود حاملَ البريد الاحمر. »

٢

حاول داود أن يُقنعَ مديريه بابقائهِ في وظيفتهِ فذهبت مساعيه ادراج الرياح فاضطرَّ أن ينزل عند الأوامر؛ عند هذا انتصر عزيز فوطَّد إقامتهُ في جونية

لم يحتج الموظَّف الجديد الى اكثر من غرفتين لإيواء عائلته، أمَّا زوجة اديب فقد سمحت له بان يضعَ حيواناتهِ في زاويةٍ من الحديقة حيث بنى لها اقفاصاً كبيرة واكواخاً من الخشب؛ وأما حوَّاء ونبيه فقد كانا يذهبان كل يوم في قطار الصباح ليُنهيا دروسهما في بيروت

كانت امرأة اديب كثيرة اللطف كريمة الاخلاق قلّما تفارق الابتسامة العذبة ثغرها الجميل؛ وكانت تعطف على الصبية الصغار وتتعهدهم بما فطرت عليه من العذوبة والرِقة. إلا أنها لم تكن تستطيع العيش في معزلٍ عن الناس،

فأقل سكينة كانت تؤلمها وتدبّ في صدرها عوامل السأم والضجر. أمّا اديب فقد كان يشتغل في حقله من مطلع الصبح الى منتهى النهار ولا يعودُ الى منزله إلّا عندما يعود ولداه من المدرسة.

وكانت الأمّ سالم قليلة العقل عنيدة سامّة حسودة تحبّ الخصومة لاسيّما مع زوجها السكّير، وغالباً ما كانت تسبب لنفسها الضرب والشتيمة حتى انتهى بها الامرُ الى تعاطي المسكرات لتتناسى الفقر المدقع الذي كان يحيط بها وبأولادها الثلاثة الذين نشأوا على تربية فاسدة، فتمكّنت منهم عادة النهب، فجعلوا يسرقون البيض من مراقد الدجاج ليأكلوه نيئاً، وينزعون حواجز البساتين ليبيعوها حطباً. ولا يتردّدون عن سلب الثمار من رياضها، والخضرة من منابتها. أمّا فريد فقد بقيَ شريفاً بالرغم من المحيط الفاسد الذي يحفّ بهِ لأن ذكريات أمه كانت تردعه عن ارتكاب المنكر كلّما خطر له.

كان فريد في عامهِ السابع عندما توفّى الله أمّه منهوكة الجسد من جرّاء الأعمال المرهقة التي قامت بها طيلة اعوام زواجها ومن الحسرات والآلام التي كابدتها من زوجها سالم السكّير. ولم يمرّ بعض أشهر على موتها حتى تزوّج والد فريد من امرأة أيّم لها ولدان، فأستحال المأوى الى جحيم هائل، وما عتّم أن شعر اليتيم البائس بحزن عميق وأدرك أن لا مصيبة أعظم عند الولد من فقد أمه.

كان سالم ينظر بحقارة الى ولده المتألم ذي المقلتين العذبتين اللتين تحملان في عذوبتهما معاني الحزن والاسى! وكان شديد البغض لهُ والنقمة عليهِ الى حدّ أنهُ كان مراراً يُمسك عنه الطعام ويحظّر عليه المبيت في مضجعه.

ذات مساء طُرد اليتيم من المنزل فاضطرّ ان يضطجع على أدراج السلّم الخارجية؛ عند هذا فُتح باب غرفة محاذية للسلّم وخرجت منه فتاة صغيرة في نحو الخامسة من عمرها وتقدمت من فريد قائلة لهُ بصوتها الجميل: «لماذا

أنت تبكي يا فريد؟ تعالَ معي فأمي أرسلتني لأجيء بك اليها» ثم أخذت يده وأدخلتهُ الى أمها وهو يبكي ويضطرب.

تقدمت أم الفتاة من فريد ونظرت الى عينيهِ المغرورقتين بالدموع بتلك الابتسامة الحلوة التي تنطوي على أرقّ ما في صدور الأمهات وقالت له: «لماذا أنتَ تبكي يا ولدي؟ فهل أساءوا التصرّف معك ومنعوا عنك طعامك؟ ألا فاجلس على هذا المقعد، وانتظرني ريثما أجيئك بصُحيفة من الحساء.»

فجلس الولدُ على حافة كرسيّ عريض ناظراً بحياء الى ثيابهِ الرثّة وقدميهِ العاريتين. وبعد هنيهةٍ جاءتهُ السيّدة «فارس» بكوب حساء سُخن وعادت الى آلة الخياطة تُنجز عملها بهدوء وسكينة.

في تلك الساعة كان التوأمان الصغيران يلعبان معاً في زاويةٍ من زوايا الغرفة، فاقتربت الفتاة من فريد وقالت له: «كيف وجدت الحساء؟ لماذا أنت تبكي؟ ألا تعرف ان البكاء يؤلمني جدّ الألم؟»

عند هذا أخذت تسرد على مسمعهِ قصّةً مضحكة فضحك حتى استلقى على ظهره؛ فسُرّت الفتاة سروراً لا سرور بعده والتفتت الى أمها قائلة: «أنظري يا أمي، إنّهُ يضحك؛ فقد نسي آلامهُ. كم اني مسرورةٌ الآن. وأنت يا أمي، ألستِ مسرورة؟» فالتفتت الامّ الى ابنتها مستغربة وسألتها بصوتٍ خافت عمّا يدفعها الى معاملة فريد تلك المعاملة الحسنة، فاجابت الفتاة: «ذلك لأنهُ بائس رضيُّ الاخلاق، ولكن اذا حدّثتهُ نفسهُ يوماً بأن ينزع عمّا هو عليهِ فلا أتردّدُ عن مقتهِ والابتعاد عنهُ.» فسمع الولد ما دار بين الأمّ وابنتها فقال بسذاجة: «ماذا يجب عليّ أن أعمل يا سيدتي لكي أحافظ دائماً على سيرتي الحسنة:» فأجابتهُ: «يجب أن تضرع الى الله وتتذكّر أمك.» فقال: «ليس من الصعب عليّ أن أضرع الى الله؛ ولكن كيف يتسع لي ذلك في البيت والجميع يهزأون بي وينتهرونني ولا يدعون لي سبيلاً للصلاة؟

٣

كانت السيّدة فارس من تلك النساء الصالحات اللواتي نشأن في وسطٍ مسيحيّ، وتخلّقن بأخلاقٍ شريفة ساذجة؛ فلم تعرف في صغرها إلّا كنيسة القرية ومدرسة الراهبات وحنان أمها العذبة التي تعهّدتها بتربية طاهرة، وعلّمتها محبّة القريب والعطف على البؤساء من أبناء الشعب.

لم تكن تلك السيّدة ملمّةً بعلم الفلسفة والمنطق، بل كانت قد تلقّنت كثيراً من الفضائل السامية في التعليم المسيحيّ، وانقطعت عن المدرسة بعد أن درست أصول ديانتها درساً مدقّقاً.

لم تقرأ في حياتها روايةً من تلك الروايات الخلاعيّة، إلّا أن مخيلتها الطافحة بذكريات القديسين وأعمالهم الصالحة كانت نقيّةً لألأةً عذبةً تطفو عليها سلامة الطويّة وجمال القلب.

يا للحداثة من ينبوعٍ شعريّ اذا صُرفت بين عذوبة التُقى وفضيلة العمل!

تزوّجت السيّدة فارس في الثلاثين من عمرها لأنها كانت تودّ ان تبقى بتولاً وتنذر نفسها للعبادة ومؤاساة الفقراء والمرضى؛ ولكن عندما تقدّم فارس لطلب يدها من أهلها نزلت عند رغبته لما رأت فيه من الخصال الطيّبة التي تؤهله لان يكون شريكاً لها في نيّاتها الحميدة ومزاياها الشريفة. أمّا فارس فقد دفعهُ الى الاقتران بها ما عرفهُ فيها من الرغبة في العمل ومحبّة البؤساء، فلم يسألها مهراً غير إبرتها وإقدامها.

تردّدت السيّدة فارس في بادئ الامر عن أن تضع يدها في يدِ ذلك العامل النشيط الذي لم يكن راسخاً في معتقده الديني كما يجب أن يكون،

ولكنَّ حبهُ لها اضطرهُ الى النزول عند كل مزيةٍ من مزاياها فصار يقوم بواجباتهِ الدينية بدون إخلال حتى انتهى بهِ الامر الى مشاطرتها تربية بنيهِ تربيةً مسيحيَّة صرفة.

كان راتبُ فارس الشهري غيرَ كافٍ وحدهُ للقيام بأود عائلتهِ؛ إلَّا أن آلة الخياطة واجتهاد امرأتهِ واقتصادها، كل ذلك كان يمهد لهُ حياةً هادئة عذبة بعيدة عن مطامع الانسان، فينسى الغنى الذي يسعى المرء وراءه في مطارح حياتهِ. أوَ ليس غنياً ذلك الذي تتوفر لديهِ ضروريات الحياة؟

كانت السيّدة فارس تنهض في الصباح وتبدأ بعملها بكل نشاطٍ؛ فلا نبالغ اذا قلنا عنها ما تقول الكتب المقدَّسة عن المرأة القويَّة؛ فهي لم تكن تأكل خبزها بالبطالة والكسل.

لماذا لا تنشد الشعراء فضيلة النساء العاملات في إدارة منازلهنَّ؟ إنني أفضلك على أنامل الشريفات أيتها الايدي العاملة؛ إنني أوثرك على الايدي المتراخية البيضاء. يا أنامل نساء الشعب المتواضعات، أيتها الايدي الحمراء المشوَّهة بالاعمال، أيتها الأيدي المستعيرة سواد الفحم من أفواه المطابخ، المخدَّشة بشعفات الحطب، التي لا تترك المكنسة إلَّا لتعود الى إبرتها! إن جهودك الشاقَّة لتعرف كيف تلِدُ الراحة بعد العناء. أجل، فالفضل راجع لك في إلباس تلك الغرف القذرة لباس النظافة والترتيب، وتحويلها من مآوٍ هادئةٍ عذبة تسمَّى: المنزل المرتَّب؛ الفضل راجع لك في غرس تلك الازهار النيِّرة، تلك الازهار البهيجة: الشملة! الفضل راجع لك في إعداد الطعام الشهيِّ الذي يُزيل الغضون عن جبهة الاب ويضع السرور في عيون الابناء. إنَّ في كل خدَّةٍ من خدودك، وفي كل ندبةٍ من ندوبك أثراً واضحاً يخبر عن تاريخ فضيلتك.

لم يكن للسيّدة فارس وقتٌ يتسع لها فيهِ أن تصرف بعض دقائق في

الثرثرة مع جاراتها ؛ فأحياناً كانت السيّدة اديب تقف على عتبة مطبخها وتناديها قائلةً : « ألا تسمحين لنفسك ببعض دقائق تصرفينها مع صديقاتك يا سيّدة فارس ؟ » فتجيبها هذه : « يصعب عليَّ ذلك يا سيّدة أديب قبل أن أنهي طيَّ الاثواب المغسلة ورتقها ؛ فاعذريني ! فكيف يتسع لمن تكون مثلي أمّاً لثلاثة أولاد صغار أن تغنم دقيقةً واحدة للاستراحة من عناء الاشغال ؟ » فتجيبها السيّدة بطرس : « إن وقتي لثمين كوقتك ولديَّ من الاشغال ما لا يقلُّ عمّا لديك ؛ ولكنَّ الانسان يحتاج دائماً الى ساعةٍ يستريح فيها . ثم إنَّ النساء لم يُخلقن في هذه الحياة لكي يرتبن المنزل ويهيئن الغذاء فقط ؛ فهنَّ كغيرهنَّ من البشر يحقُّ لهنَّ أن يستغرقن حيناً من الزمن في الاحلام اللذيذة وينصرفن عن الحياة المادّية الى الحياة الخياليَّة الهادئة . . .

كانت السيّدة بطرس ذات روح خياليّة وطبيعةٍ متراخية ، تسعى جهدها في أن تتلهّى عن الحقائق العالميّة المبهمة . ولقد تزوّجت بلا مهر من موزّع بريد جونية وهو شابٌ كثير الذكاء ذو آمال واسعة يُدعى بطرس فما غتَم أن ارتقى الى وظيفة مدير في المحطّة . كانت أفكار السيّدة بطرس تقطن في نواحٍ مرتفعة عن مطارح الارض ، وهذا ما دفعها الى تبذير الاموال وانفاقها بدون داعٍ حتى بلغت نفقاتُها ثلاثة الف ليرة في السنة ، ومع ذلك فقد كانت عديمة الاعتناء بأمور بيتها ، لا تكترث إلّا لقراءة الرواياتِ والقصص الغراميّة .
أمّا زوجها فقد كان يعود الى منزله في الساعة الحادية عشرة والنصف فلا يجد الطعام مهيئاً ولا الاسرّة مرتّبة ولا الاواني معدّة في أماكنها فيسخط ويجدّف ويحطّم ما يراه امامهُ ، ويقول لها بصوتٍ غضوب : « إنَّ هذا المأوى لجحيمٌ لا أستطيع السكن فيهِ ! » فتضطرب امرأته وترفع الى السماء عينيها المغلقتين بأهدابٍ مستطيلة ، وترجع بالذكرى الى بواسل رواياتها الكثيبات فتستعير أصواتهنَّ المحزنة المتهزّزة وتصرخ قائلةً : « بماذا جنيت على السماء ؟ » فيجيبها

بطرس : « جنيتِ عليها بأنكِ قرأتِ رواياتٍ وقصصاً عوض أن تهتمي بإدارة منزلك. فما الذي شغلك هذا الصباح عن ترتيب الاسرة وإعداد الطعام ؟ »

— لا تدع الحدة تأخذ منك مأخذها يا صديقي. أنا لا أنكرُ أنني لم أحسن اختيار الوقت المناسب للقراءة، غير أني كنت قد انتهيتُ الى فقرةٍ مؤلمة : لقد نصبوا فخاً لفتىً جميل من أسرةٍ كريمة وأرادوا الايقاع بهِ، فهل أقدر أن أقف عن القراءة قبل أن أراه مفلتاً من أيدي أعدائهِ ؟ لا يا عزيزي بطرس، فهذا ما يفوق قدرتي. أمّا الان فأيقن بأنني سأجتهد في أن أتمم ما يجبُ عليَّ تتميمه بوقتٍ قصير. أنت لا تجهل أنني كثيرة الحذاقة ساعة أرغب فسترى كل ما تريده متمماً قبل الساعة الثانية.

بعض النساء يتفوّقن على سواهنَّ بترتيب الاشياء واتقان العمل والنظافة، أما السيّدة بطرس فقد امتازت عن غيرها بالسرعة المدهشة.

لم تحتج الى أكثر من دورتين او ثلاث في غرفتها حتى أعادت كل شيء الى مكانه، فاطمأنَّ بالها عندئذٍ فأخذت تحت ذراعها قماشتها المطرّزة وخفّت الى مجلس الثرثرة المنعقد تحت ظلال شجرة الطلح.

كانت السيّدة بطرس تنظر الى القرويات اللواتي كنَّ يجالسنها نظرة ملكةٍ الى من دونها، لانها كانت تفتخر بانتسابها الى أسرةٍ عاشت في المدن وبأنها المرأة الوحيدة التي أُطلق عليها لقب « سيّدة » في منزل عملة السكّة. إلّا أنها استاءت من مجيء عزيز وحلولهِ في ذلك المنزل، لاسيّما عندما وقع نظرها على ابنتهِ حواء وولده نبيه وخطر لها أنها ستنخسف أمام جمال تلك وذكاء هذا؛ ولكنها ما لبثت أن اطمأنت وعادت الى سكينتها.

كانت السيّدة عزيز، وهي قرويّة لا تعبأُ بسوى العمل والانتاج، تهتمُّ جدَّ الاهتمام بمعزها وخنازيرها؛ تارةً تمثِّل دور الرجل فتقلب بمحفرها حديقتها الصغيرة، وطوراً تأخذ على عهدتها غسل ثياب الغير لقاء أجرةٍ؛ وخلاصة

القول كانت لا تخجل بعمل مهما كان حقيراً. وكانت ابنتها حوّاء فتاةً صلبةً عديمة الأناقة، قطوبةَ الوجه، تُكثر من المطالعة والدرس، يتراوح عمرها بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة، تبدو على محيّاها أمارات العُجب والكبرياء! وعلى الجملة فهي من تلك الفتيات اللواتي لم تحدثهنّ نفوسهنّ يوماً بأن يخلعنَ عن عرش الجمال امرأةً حسناء كالسيّدة بطرس.

بقيت السيّدة بطرس في وسط ذلك المجتمع المؤلف من الانفس الساذجة المستغرقة في المادّة تلك الروح الخيالية المشبعة بالجمال والفنّ ذات الاصابع الناعمة التي لم تُبدَع إلّا لتطوي أوراق كتابٍ أو لترسم أزهارًا على نسيجةٍ من الكتّان الثمين.

٤

جاء يومُ الأحدفلم تأبه لهُ السيّدة بطرس لان إيمانها الدينيّ الذي لم يؤسَّس على دعائم متينة كان قد فترَ من يوم الى يوم تحت نفوذ قراءتها الروايات المفسدة، ففي ذلك الصباح الجميل عادت السيّدة اديب من القدّاس الأول وخلعت عنها وشاحها الابيض بتؤدة واحترام، فتقدّمت اليها السيّدة بطرس وطلبت منها أن تعيرها ثلاث مغارف من الطحين ومغرفة من الزيت قائلةً:

« لقد تراخيت في تجديد المؤونة يا سيدة اديب ويجب عليّ أن أعدّ الغداء قبل الساعة الحادية عشرة لان زوجي يودّ أن يذهب الى جونيه عند ظهيرة هذا النهار، فيظهر لي أن هنالك فندقاً يؤمّهُ غواة القمار، وزوجي أصبح منهم لانهُ ينقاد الى أصدقائهِ الذين عوّدوه الاختلاف الى الحانات كلما سنحت لهُ الفرص. »

قالت ذلك ونظرت بحزنٍ الى ردائها المخرّق في مواضع عديدة؛ وبينا

هي عائدة الى غرفتها وفي يدها مغارف الزيت والطحين أبصرت السيّدة فارس خارجـة من المنزل بأبهى ما لديها من الزينة ، يتبعها أولادها الثـلاثة ذوو الوجوه الرخصة الطريئة والشعور المصقولة النظيفة مرتدين أردية بيضاء، أحدهم يحمل مظلّة أمـه والآخر كتاب صلواتها ويتجهون جميعهم الى الكنيسة الكبرى في جونية ، فصرخت قائلةً : « آه ! إنَّ هؤلاء المـانتين السعداء لا يزال يتسع لهم الذهاب الى الكنيسة ! أمّا أنا فلم يبقَ لي آحادٌ أُسرُّ بها ! » فجاوبتها السيّدة فارس برقّتها المعهودة : « إنك تأخذين عليَّ دائماً استغراقي في الحياة المـاديّة ، فأنا لا أكتمك أنني أصرف ستّة أيام في العمل والكدّ ، ولكنَّ الأحدَ هو يوم الراحة من التعب لا بل عيدٌ جميل . لقد طالما ذقتُ في حياتي لذّة الآحاد السعيدة حتى أصبحت اليوم أرغب في إذاقة حلاوتها لاولادي الصغار . »

ثم التفتت نحو المنزل وقالت : « من يتبعني الى الكنيسة ؟ » فأسرعت فتـاةٌ جميلة في نحو العاشرة من عمرها هي ابنة اديب ذات المقلتين الحلوتين والبشرة الناعمة النقيّة التي لا تكاد تقع عليها أعين عملة السكّة حتى يقولوا في نفوسهم : « اصبروا حتى تبلغ السادسة عشرة من عمرها فتبصروا الهـائمين يخفّون اليها كما تخفُّ الشحارير الى المرايا .

***

وعندما انتهت الذبيحة عادت السيّدة فارس الى المنزل يحيط بها أولادها الأحـداث كفراش تحوم حول زهرة ؛ وفيما هم في الطريق أخذت تقصُّ على المسامع حكايات يوسف الصديق وضحيّة اسحق وانتصار داود على جليات وحـداثة المسيح ونبيذ قـانا وضريح لعـازر والذبائح في الديماميس ورمي

المسيحيين فريسةً للأسود حتى انتهت الى قصّة «تارسيسيوس» الولد القديس فسألتها الفتاة الصغيرة عمّا اذا كان هذا الولد جميلاً، وسالها فريد عمّا اذا كان رثّ الثياب وشفع ذلك بقولهِ إن من التعزية أن نشاهد أجساماً هزيلة وثياباً رثّة تنطوي على قلوبٍ نبيلة حساسة.

وبعد برهةٍ قصيرة وصلت الجماعة الى المنزل فخف أبناء فارس يحيّون والدهم الجالب تحت شجرة الطّلح يدخن لفافتهُ بهدوء وسكينة. وكان طائرٌ يغنّي في الأبعاد ألحانه المملّة، فسألت الفتاة الصغيرة أمّها قائلةً: «ما الذي يغنّي في الأبعاد؟ فأجابتها الأم: «هذه تباشير الصيف يا بنيّتي!» فقالت الفتاة: «وأين هو؟» فقالت: «لا أدري، ولا أحدٌ يدري. إنهُ يعلن قدومهُ بألحان طائر، ولكنَّ هذا الطائر منيعٌ عن أن يدركهُ أحد.» فقالت الفتاة:

– آه! لو كان فريد هنا لما تعذّر عليهِ أن يجيئني بهِ لأنهُ يدرك أماكنَ العشاش كلّها! عند هذا تراءى فريد والفتاة الصغيرة ولبيب راغب الذين سئموا المنزل فأسرعوا الى ملاقاة عائلة فارس. وبعد ساعات طويلة سمِعت الاجراس تدقّ في جونية معلنةً صلاة العصر، فقالت السيّدة فارس بصوتٍ عذب: «لقد أزفت ساعة التبريك أيها الصغار، فلنسجد بخشوع وتؤدة ولنطلب منهُ أن يمنحنا بركته الالهيّة!» فالتوت الركب في الاعشاب المزهرة وانحنت الجباه تحت ظلال الاغصان، فشخصت السيّدة فارس الى الجباه الخاشعة جامعةً كلتا يديها وقالت: «باركنا يا الله، واحرسنا بعنايتك؛ شكراً لك على ما أسبغتَ علينا من النعم، وعلى هذا الأحد العذب والشمس الجميلة. ولكن، لماذا أوليتنا كل هذه الحسنات دون سوانا من البؤساء المساكين؟ فنحن نعطف على إخوتنا الفقراء، ونسألك أن تهبهم بعضاً من السعادة التي وهبتنا إياها.»

ولمّا سكتت السيدة فارس بقي الاولاد يفكرون بعض ثوانٍ حتى تخلل الصمت صوت الفتاة الصغيرة :

— مَن هم إخوتنا الفقراء ياسيدة فارس ؟ فأراد فريد ان يقول لها إنهم اولاد بؤساء نظيره لا ملجأ لهم ولا من يتعهدهم بعناية وشفقة ، يصرفون الحياة تحت سلطة والدٍ ظالم سكير وإخوةٍ أردياء أشرار ، إلا أنهم يفتقرون الى عطف السيدة فارس ومحبتها ولا يتسع لهم كما يتسع له أن يقضوا ايام الآحاد بقربها يتمتعون بحنانها وعذوبتها .

عند هذا تأبط فارس ذراع امرأته واتجه الى منزله تتبعهُ نظرات فريد وابنة اديب الصغيرة .

٥

كان الجمهور مزدحماً تحت شجرة الطَلح في ذلك المساء ، وكان السيد أديب يهيئ غداءه المؤلَّف من البطاطا والباقلاء المالح والسلَطة في حين كان بطرس وعزيز ونجيب يتحدَّثون عن مسؤوليّة صدام حدث في الصباح بالقرب من محطّة « عينطورا » ؛ أمّا النساء فقد كنَّ يتساءلن عن السبب الذي أدّى الى ذلك الصِدام ، وعن إهمال المحقّق وفتور المفتّش الى أن قالت إحداهنّ : « إن من الصعب أن يتّفقَ إيجاد قومٍ صالحين يقومون بما عُهد اليهم حق القيام . » فقال نجيب : « لا يجب علينا أن نتأسّف الى هذا الحدّ ، فلقد سافرتُ الى مدن عديدة واختبرت كثيراً من الرجال فلم أجد فيما رأيت ومن اختبرتُ رؤساء أعدل وأنبه من رؤسائنا . ألا فلننظر مثلاً الى السيد راغب ، فهو مثال الجدّ والنشاط ، ويندر أن نراه مهملاً أمر محطّته في آية حالةٍ من الحالات . » فاجاب سالم السكير بعد أن نزع غليونهُ من بين شفتيه : « أجل ،

إنَّ الرئيس لرجلٌ مجتهد، ولكنهُ يتطلَّب من عملتهِ أكثر مما يتسع لهم، فهو ظالم الى حدِّ الكفر.» فنهض أديب عن المنضدة وقال: «أراك تتظلَّم يا سالم، ولكن ثقْ بأنني لو رأيتُ بين عمّالي من يعاقر الخمر مثلك لما تردَّدت عن طردهِ؛ إلّا أنَّ الرئيس أصرَّ على إبقائك رحمةً بعائلتك فلا تظنَّ أنهُ يجهل ما وراء سلوكك من المخاطر العظيمة، وكنْ على ثقة بأنهُ يضطرّ الى مضاعفة الحراسة باحتفاظهِ عليك، فصرَخ بطرس قائلًا: «إنني من رأي سالم، فالرئيس شديد التعنُّت كثير المطاليب، فهو لا يسأل عمّالهُ أن يقوموا فقط بما يترتَّب عليهم بل يريد أن يكونوا غيورين أولي حميَّةٍ وهمَّة!... ولِمَ الحميَّة والغيرة؟ ألأجل الشركة؟ إنني أسمعهُ يقول دائماً: «كونوا لطفاء مع المسافرين لاعلاء اسم الشركة، لا تتأخروا عن تسليم البريد لكي تمتاز الشركة عن سواها بتسهيل المواصلات، لا يجب أن توقفوا البضائع فترة واحدة. تحرَّك يا بطرس، فالشركة تنظر اليك بالمرصاد، فهي تحبُّ العمّال الغيورين أولي الحميَّة والهمَّة... متى تتوصل الى أن تفهم كيف يجب أن يكون عامل الشركة النشيط.» إنَّ رئيسنا لسليم الطويَّة طيِّب القلب، ولكنَّ طيبةَ قلبهِ تؤدّي الى الازعاج والكدر. مَنْ يجهل أن الشركة هي جماعة من المساهمين لهم أغراضهم ومطامعهم لا همَّ لهم إلّا قبض مقاسيمهم الجسيمة؟» فعارضهُ نجيب بقولهِ: «إن الشركة هي غير ما ظننت يا بطرس.»

— وما هي إذن؟

— هي جماعة من المساهمين اذا شئت، ولكنها فوق ذلك تلك الكتيبة من العملة الصالحين الذين يشتركون في جهاد واحد هو من العظمة بمكان، والذين يوطّدون دعائم تجارتنا وصناعتنا وحياتنا الاجتماعية. آه يا بطرس! إنك من تلك المدرسة الحديثة التي تنتقد وتهزأ وتتأسف! فهذه المدرسة

يا صديقي تدفع الى التمرّد، والتمرّد يدفع الى الثورة. غير أنا — نحن العملة الاقدمين — لا نماثلكم في شيء من هذا، اذ إننا نحبّ مهنتنا حباً شديداً!..

فقاطعهُ بطرس قائلاً: «يا لها مهنةً شريفة! أتعتقد أنهُ من المستحبّ أن يصرف العامل شبابه في وزن الاحمال وفحص السندات المقبوضة؟» فأجابهُ نجيب: «ذلك لانك لا تنظر الى أبعد من ميزانك أو من ورقتك الخضراء! إنَّ من لا يجمع الى مهنته بعضاً من التصوُّر لا يمكنه أن يتعشقها!»

— وما معنى التصوّر في السكة الحديديّة؟

— التصوّر؟... أنا، عندما أكون مهتماً بتدوين بعض الارقام في مكتبي أفكر فيما يأول اليه اعتنائي ودقّتي، وما وراء كدّي واجتهادي من المنفعة التي تُعلي شأن تجارتنا وترفع معاملنا الى مستوى المعامل الراقية في العالم؛ وعندما أُبصر قطاراً من قطرنا يتجه نحو باريس مقلًّا الاغلال في عجلتهِ أفكر في جهاد المزارعين الذي أكسب أرض الوطن ثراء وحياة...

— هذا بعضُ الشيء الحسن!...

— أتظنّ أن ذلك أمرٌ لا قيمة له؟ أترى أن ذلك سرورٌ مُهمَل لمن هو مثلنا حقير؟ أتعتقد أن من يشعر بجهاد لبنان يمرُّ بين يديهِ ويندفع الى حيث تكثر الاغلال والذهب وجهود آلافٍ من الأذرع المجهولة لا ذكر لهُ في هذا العالم ولا فضل؟ أجل، نحن عمّال بؤساء ولكننا نُدير دولاب العمل والثراء في أرض الوطن. واذا دُهم هذا الخصب، ولحق بهِ النهب يوماً، اذا هجم العدوُّ على حدودنا ونادت الابواق والاجراس الشعب الى الحرب، فمن يهبُّ للذود عن الحياض قبل العمّال والبؤساء؟ والى من يعهد الوطن بالقيام بالواجب المقدّس قبل أن يعهد بهِ الينا؟ آه! إنني لن أتمنّى الحرب يا بطرس، إلّا أنني لا أضمن تجنّبها وتحاشيها. سيجيءُ يوم نضطرّ فيهِ أن ننهض لدفع العدوّ وإنجاء البلاد من شرّه! سيجيءُ يوم يتمّ فيهِ للعدوّ سنُّ سيوفهِ الطماعة فيثب وثبة

النمر الجائع ليستثمر استعداده الحربيّ . عند هذا تدرك الشعوب كلّها أيَّ دورٍ عظيم تمثّلهُ السكك الحديديّة في ملعب الدفاع عن الوطن! سيُعهد الينا باخراج الجرحى الى المستشفيات البعيدة؛ بإقلال الرسائل — رسائل الاهل والمحبين — الى الجنود الاعزاء والاسرى المساكين! ألا تظنُّ يا بطرس أن عمّال السكك الحديديّة سيتاح لهم يوماً أن يكتبوا صفحة المجد والبطولة والتضحية في مطاوي التاريخ؟

فصرخ اديب قائلاً: «مرحى يا نجيب مرحى! إنَّ من الفخر أن نسمعك تتغنى بهذا الكلام الطيّب.» فأيد عزيز كلام أديب باشارة من رأسه؛ أمّا بطرس فقد هان عليه أن يتظاهر بالاندحار فأخذ يسخر قائلاً: «إنكم لنعاج صغيرة أوجدتكم الحياة لتجزَّ صوفكم.» فأجاب عزيز: «فلنعد الى العمل يا بطرس حتى يحين وقت الجزّ، لاننا لم ننجز بعدُ القيام بخدمتنا، وهذا قطار بيروت يُعلن قدومه!»

قال هذا ونزلوا الى المحطّة. أمّا فريد فأخذ يدَ نجيب وقال له بصوتٍ خافت: «عندما أكبرُ أنخرطُ في سلك عمّال السكّة!» وسُمع صوت الفتاة ابنة اديب تقول بتوسّل: «حدّثنا عن أيّام جنديتك يا سيد نجيب!» فأظهر النساء ارتياحهنَّ الى هذا الطلب فقلنَ: «أجل! أجل! يا سيد نجيب!»

كان نجيب رجلاً أعزب صُلب الارادة، لا يلذّ لهُ شيء كإيقاظ ذكرياته المضجعة في زوايا مخيلته؛ فطالما صرف ساعات الفراغ في استحضار مشاهد العرب الرّحل في مطارح الصحراء، وإحياء ماضيه الطافح بتذكارات الجزائر، والجوامع البيضاء، وكُثبان الرمال، ونخيل الرياض، وقوافل الجمال، والحياة في الخيام أو في رحابة الصحاري...

ترك الاولاد ألعابهم وتحلّقوا حول نجيب ليسمعوا حديثهُ، فشرع هذا يقصُّ على مسامعهم رحلاتهِ في أفريقيا مصوّراً لهم جمالَ الفجر الزاحف على

التلال وفي منخفضات الاودية ، والليالي العذبة المضمّخة بأريج النسمات ، وايام الشتاء السوداء ، والواقصات في الاشعّة الذهبية المتلألئة على السهول الجديبة .

وكانت السيّدة بطرس تحفظ أغنيـةً « جزائريّة » ذات نبرات رقّاصة كخبب جوادٍ عربيّ فأنشدتها لهم بصوتها العذب ؛ ثم طلبت من السيد نجيب الذي وهبتهُ الطبيعة ذاكرة غريبة أن ينشدهم بعض أبيات من الشاعر « ناصيف اليازجي » . فقال اديب : « أجـل ، أجل ، أنشدنا قصيدة لهذا الشاعر فأصغيَ اليكَ طيلةَ الليل ، إن هذا الرجل ليتكلم كباقي الناس بالرغم من أنّ في لغتهِ موسيقى جميلة . » فـابتسم نجيب ونهض من جلستهِ بعد أن شحذَ ذاكرته وأخذينشد قصيدة «لهذا الشاعر» وعندما وصل الى نهايتها هبط الليل وانفتحت كوى النجوم في أجواز الفضاء ، في حين كانت نسمةٌ معطّرة بأشذاء الطّلح المزهرة تتلاعب بشعور النساء المصغيات الى حديث نجيب . أمّا الاحـداث فقد رقدوا على ركب أُمهاتهم ، وأمّا الابكار فقد كانوا يصغون بدهشةٍ وسكون الى القصيدة الجميلة . وكانت نبرات الاشعار العذبة تحرّكُ موضعَ العاطفة من الارواح الساذجة ومن القلوب المنوّءة بأشجان الحيـاة ، اذ إنّ نفثات الشعر وموءالفة الفنّ أيقظت فجأةً جذوة الخيال الضئيلة التي كانت تهجع في مراقد النفوس وصيّرتها شعلةً مضطرمة .

في تلك الساعة كان رجـلٌ قادماً من المحطّة فسمع صوت نجيب فلبث واقفاً في ظـلال الكرمة على مقربة من شجرة الطّلح ؛ فظنّ الجميـع أنهُ موظّفٌ من موظّفي السكّة فلم يأبهوا لـهُ . وكان صوت نجيب يتصاعـد في مذاهب الليل بكل ما في رنينهِ من العذوبة والموسيقى ويتصل الى مسامع الرجل محكَم النبرات واضحَ الاجزاء . ولمـا سكت الصوت ارتفع التصفيق وعـلا الهتاف ، فقال أحد الحاضرين : « آه يا سيد نجيب ، لقد سكبتَ في أرواحنـا عذوبةً لا عذوبة بعدها . » وقال آخر : « لقد أوشكتَ أن تفجر

من أعيننا ينابيع الدموع!» وقال بعضهم: «لا أظنك تضنُّ علينا بقصيدة أخرى من نظم «الشيخ ناصيف اليازجي» أليس كذلك؟ إنني لا أجد شاعراً مثلهُ يستطيع أن يُفهمنا حقيقة القلب البشري...»

عند هذا أبدى الغريب المنتصب وراء جفنات الكرمة حركة تعجُّبٍ واستغراب، وقال في نفسهِ: «ما كنت لاتوقَّع أن أسمع أشعار «اليازجي» أو أن أزعج جلسةً شعريَّةً عندما هممت بالمجيْ الى منزل عملة السكة. آه! إنَّ النفوس مهما حقرت واتضعت تظلُّ ظمأى الى الجمال وخليقةً بفهمهِ! ويخيَّل لي أن شعبنا اللبناني الذي كثيراً ما سعوا الى جعلهِ شعباً مادياً لن يندفع الى إطفاء الكواكب النيّرة...»

كان هذا الرجل الاب «يوحنا» كاهن جونية.

تقدَّم الكاهن الى المنزل بعض خطواتٍ، فعلا الهمس من شفاه الحضور وخفّوا الى تحيته. أمّا النساء فقد انزعجنَ قليلًا لدى قدومهِ الفجائيّ ونهضنَ من اماكنهنَّ لاستقباله؛ فقال الكاهن: «لا تزعجوا نفوسكم يا أحبائي، واعذروني على حضوري في هذه الساعة المتأخرة. لقد جئت لأقدّم خدمةً للسيّد سالم.»

فنهض السكير من جلسته وفي يديهِ قبَّعة يلاعبها وقال: «أنا موقوفٌ لخدمتك يا سيدي الكاهن فماذا تريد؟» فأجابهُ الكاهن: «إنني لشديدُ الغبطة بولدك الصغير يا عزيزي، فهو مثال الاجتهاد والذكاء، ولقد حفظ التعليم المسيحيّ حفظاً تامّاً دفعني الى أن أطلب منك أن تسمح لي بهِ لأضمّهُ الى عداد ملائكة الرسل، وكُنْ على ثقةٍ بأنني لا أتأخر عن إعطائهِ جعالة ترضيهِ...» فدندنَ سالم قائلًا: «لا أرفض يا سيدي الكاهن، لا أرفض!» فهتف النساء دفعةً واحدة: «مرحى يا فريد، مرحى!» وقال نجيب:

« إنهُ لولدٌ طيّب السريرة حسن الاخلاق ، ولكنهُ يميل الى أن يكون عاملاً في السكة الحديديّة يا سيّدي الكاهن . »

فأجاب هـذا : « ليس عمّال السكة رجالاً كسائر الرجال ، انهم يعرفون شعراءهم وينشدون قصائدهم بنبراتٍ ملؤها الجمال والفنّ . لقد سمعت إنشادك يا سيّد نجيب فأهنئك ! إنك تحسُّ بعذوبة الشعر وتعرف أن تعطيهُ حقّهُ من الالقاء . . . »

عند هذا جلس الكاهن وأصبحت المباحثة عموميّة .

أمّا الفتاة الصغيرة فقد انحدرت الى جانبٍ وقالت لفريد الطافح وجهُهُ سروراً وغبطةً : « أصحيحٌ يا فريد أنك ستلبس الثوب الاحمر والقميص المفوّف بالزركشة الجميلة ؟ وأنك ستُشعل الشموع وتهزُّ المِبخَرة ؟ » فأجابها فريد : « بدون ريب لأنني سأصبح من ملائكة الخورُس ! فكثيراً ما حلمتُ بهذه الأُمنيّة السعيدة . . . » فحدّقت اليـهِ الفتاة في أشعّة الغسق وقالت لهُ بصوتٍ عذب تراودهُ حسرةٌ عميقة : « إنَّ من الحزن أن لا يكون لك وجه جميل كوجه لبيب راغب ! »

٦

لم تسمع الأُم ذلك الثناء الذي وجّهه الكاهن الى فريد بدون أن تغتاظ بعض الغيظ ، لا سيما وقد انتبهت الى تأييد العمال كلام كاهن جونية .

كان الجميع يحبون فريداً ويمقتون أبناء امرأة أبيه لأنهم تشرّبوا عادات امهم ونشأوا على النهب والفساد .

منذ ذلك اليوم الذي اختار فيه الكاهن فريداً ليضمّهُ الى عداد ملائكة

الخورس تغيّرت طباع الام سالم واتشحت بوشاحٍ من الحقد كثيف وأصبحت لا تنثني فترةً عن إرهاقه تارةً بالاتعاب وطوراً بالضرب ، حتى إنها منعت عنهُ اللعب والحريّة ونهته إلّا عمّا يثقل عليهِ ويشقيهِ ؛ وفوق ذلك فقد حجبت عنهُ الأكل إلّا قليلاً منهُ وحرمتهُ بعضاً من ثيابهِ وأمتعة فراشهِ الحقيرِ وأعدّت لهُ غرفةً لا نافذة لها ملأى بالجراذين والفأر وضعت فيها رقعاً بالية على قليل من القشّ وأمرتهُ بأن يصرفَ فيها ليالي رقاده .

ذات يومٍ سرق أولاد الأم سالم بيضاً من قنّ السيدة عزيز فجاءت هذه تشكو أمرها الى أمهم فوقعت الجريرة على فريد المسكين !

وذات يوم غضب اديب لانهُ ذهب الى الحديقة فوجد شجرة الكرز عاريةً من ثمرها ولم يرَ ممّا زرعهُ من الخضرة إلّا جزءاً طفيفاً فتهدّد أبناء سالم برفع شكواه الى التحري فكان أن تُهم فريد بكل هذا فنال قسمتهُ من التوبيخ والضرب ! وذات يوم وجدت السيدة بطرس ضفدعاً لزجاً بين صفحتين من رواية « الكونت ده مونتو كريستو » فأصابها هزّةٌ عصبيّة أدّت الى طلب الطبيب الذي خشي عليها من حمّى دماغيّة ، وبعد البحث والتدقيق وقع الذنب على فريد فجوزيَ شرّ جزاء .

كان فريد البائس يهزل من يوم الى يوم ، وقد توارت عن وجههِ ابتسامة الصبا ، وأصبح أقرب الى سكّان القبور منهُ الى أبناء الحياة !

ففي احد الايام سألهُ الاب يوحنا وقد أبصر أمارات الالم مرتسمة على محياه : « بماذا أنت تفكر يا فريد ؟ » فأجاب الولد : « إنني أفكر بالاموات ياسيدي الكاهن ، فهؤلاء يستريحون في قبورهم ولا من يسيء اليهم … آه ! إنني أتمنّى الموت لاستريح مثلهم ! »

كانت نبرات صوتهِ ملأى بالالم الساذج والحقيقة الموجعة حتى إن الكاهن لم يملك نفسهُ من الشفقة فقال لفريد : « ولِمَ هذا اليأس يا بُنيّ ؟ » فلم يقدر

الحزن أن يفجر العبرات من مقلتي فريد لانهُ تمرّنَ منذ زمن طويل على التجلّد وإمساك الدموع، فقال: «لا أدري! إلّا أنني سئمت الحياة! سئمت الحياة السوداء!»

***

كانت ساعات المدرسة وأوقات الخدمة في الكنيسة هي الفرص الوحيدة التي يتذوّق فيها لذّة الحياة؛ وكان يعذب عندهُ أن يحمل المبخرة ويدقّ جرس التبشير، أمّا سلوكهُ في المدرسة فقد كان مثالاً يُحتذى بهِ، وأمّا اجتهادهُ فقد كان موضوع الاعجاب والتكريم.

ذات مساء عاد تلامذة المدرسة الى منازلهم وكان بينهم ولدٌ في نحو الثانية عشرة من عمره هو ابن يوسف صاحب نزلٍ مجاور للمحطّة. كان هذا التلميذ كثير الكسل محبّاً للشرّ لا يلذّ لهُ إلّا الخصام وإزعاج رفاقهِ الأحداث تارةً بنصب أشراكِ الايقاع بهم وطوراً بالهزء المتأتّى عن الحسد؛ ففيما هم في الطريق أخذ الولد الشرّير شعاباً محدَّدة الأطراف وشرع يخزُ بها أقدام الفتاة الصغيرة، فغضب فريد لهذا التصرّف السيّء. وما تردّد أن رماهُ بضربةٍ قويّة فسقط على الأرض وصادف جبينهُ حجراً ناتئاً فانشقّ وتدفّق الدم غزيراً من الجرح؛ ففرحت الفتاة الصغيرة وقالت لفريد: «لقد أحسنتَ فعلاً، فلنهرب لئلّا يتشبّث بنا هذا الشقيّ ويُرهقنا ألماً.» إلّا أن الياس الشرّير غسل جبهتهُ تجاه إحدى السواقي وأخذ يرشق الهاربَين بالحجارة. ولمّا أصبحا في مأمنٍ منهُ وقفت الفتاة وقالت لفريد: «فلنسترح قليلاً يا رفيقي ولا تخشَ ضرراً من الياس فهو أضعف من أن يتمكّن منّا. أو لا تراهُ يبكي كفتاةٍ صغيرة ولا يجروْ أن يتقدّم اليكَ بالرغم من قوّتهِ التي تفوق قوّتك عشر

مرّات ؟» فسمع الياس هذا الكلام فثارت في رأسهِ سورة الغضب وهجم على الولدين كالنمر الشرس، ولم تمضِ بعض ثوانٍ حتى تمكن من فريد فطرحهُ على الحضيض وأخذ يضربهُ ضرباً موجعاً حتى نبع الدم من شفتيهِ. عند هذا صرخ الاولاد بصوتٍ مرتفع: «النجدة! النجدة!»

في تلك الآونة كانت عجلة مارّةً في الطريق المجاور، فلمّا سمع صاحبها الصراخ خفّ الى مكان الحادثة، فهرب الياس الى غابٍ كثيف واختفى عن الأعين.

رفع سائق العجلة فريداً عن الأرض وقد أوشك أن يُغمى عليهِ وحملهُ الى المحطّة حيث مدّدوه على أكياس الحنطة؛ فلمّا وقع عليهِ نظر الأم سالم أخذت تلعن وتسبُّ يوسف بما أُوتيت من فطرةِ التجديف والغضب؛ إلّا أن امرأة اديب لم تتردّد أن أبعدت عنهُ الأم الشرسة وذهبت بهِ الى غرفتها حيث ضمدت جرحهُ ووضعتهُ على سريرٍ ناعم. ولمّا كان من غدٍ شعر فريد بأنهُ تقدّم خطوةً الى الشفاء. فجاءتهُ السيدة اديب بغذاءٍ خفيف وقادتهُ الى ظلال شجرة الطلح حيث أجلستهُ على كرسيٍ من قشّ تحفّ بهِ الوسائد من كل الجهات.

فلمّا أبصرتهُ الأم سالم على هذه الحالة قالت بصوتٍ تراوده نبرات الغضب: «هل اعتقدت السيدة اديب أننا نعجز عن إيجاد طُرقٍ للعناية بفريد في منزلنا؟» أمّا السيدة بطرس فقد كانت تنظر الى اليتيم المسكين بشفقةٍ وحنوّ، شاخصةً الى شحوبهِ واصفراره بعين ملؤها الحزن.

لا تحتاج النفس الحسّاسة المشبعة بالخيال الى أكثر من هذا المشهد لتتحرّك فيها عاطفة الرحمة والحنوّ.

فما ملكت نفسها أن قالت: «مرحى يا فريد! إنك لطيّب القلب شريف

الطبـاع . ويندر في سواكَ من يُقدم وهو في الحـادية عشرة من عمره على المخاطرة بنفسهِ في سبيل الدفاع عن فتاة .

٢

كانت شمس آب المحرقة تُلهبُ محطَّة جونية في حين كان شابٌ جميل الطلعة رقيـق الشاربين جالساً في مكتب المدير يطالع جريدةً في يـدهِ وبين شفتيهِ لفـافة من التبغ . كان هـذا الفتى خلفاً وقتياً للسيد راغب الذي مُنح إجازة بعض أيام يصرفها مستريحاً من عناء الاشغال ؛ إلّا أنهُ كان يشعر بالسأم يستولي عليهِ في جونية وقد استاء من طعام النزل الذي بناه يوسف قريباً من المحطّة .

هنـاكَ على مقربةٍ من المحطَّة تنساب ساقيةٌ صغيرة حامت حواليها غيومٌ كثيفة من البعوض حرمت ذلك الشاب أن ينام طيلة ليالٍ ثلاث ؛ فانزعج مزاجهُ العصبيّ وتكدَّر حتى لم يبقَ لهُ تجلدٌ على الصبر ، ولكنهُ لم يفترْ عن القيـام بواجبهِ تاركاً لمأموريهِ الحرية في كل ما يُجرون ؛ فاغتنم بطرس وعزيز وسالم هذه الفرصة السانحة ليذهب كل منهم الى حيث يرغب .

أمـا سالم فكان يجلس بين أقـداح خمرتهِ ، فيلهو عن الحرّ الشديد بما في قنانيهِ من المرطبات المسكرة قائلاً في نفسهِ : « إن راغب غائب ، فاذا جلست الى خمرتي لا أقترف ذنباً يستحقّ العقوبة ؛ ثم إن الخلف الوقتيّ لا ينتبه لي فهو راغبٌ عني في بَرْدِ أظـافيره وتعكيف شاربيهِ . إنني لا أوثِر هذا الرئيس على سواه ، فهو لا يضنُّ على مأموريهِ بساعاتٍ حرّة في أوقاتٍ محرقةٍ كهذه . »

ففي أحد الايام استفاق عزيز من رقدته وأسرع اليهِ بقميص النوم وقال لهُ : « إنكَ تعاقر الخمر يا سالم وتنسى أن القطار على أهبة الوصول » .

فأجابهُ سالم بصوتٍ يتردَّد بين الصحو والسُكر : «ها أنذا يا سيد عزيز! ها أنذا!» قال هذا وتبعهُ متمايلاً من السكر؛ فعندما بلغا الرصيف كان الحرُّ شديداً والسماء تلتهب على الرؤوس والشمس تُذيب الحُمَر تذويباً. وكان الريف كالحاً عبوساً لا يُسمع منهُ إلّا أصوات الصراصر المملّة تملأُ بأزيزها مطارح الحقول؛ فقال سالم : «إن في السماء لناراً تتساقط على الارض.» ثم انحنى ليلتقط طرف لفافة عن الرصيف.

تعوَّد سالم أن يجمع فضلات لفائف يرميها المسافرون على الارض ويعمل منها كتلة لغليونهِ.

فقال عزيز : «ما لك تتردَّد يا سالم؟ إنك لكثير الضجر هذا النهار» أمّا سالم فلم يلتقط اللفافة وبقي منحنياً، وفجأةً كبا كبوةً وانطرح على الرصيف دفعة واحدة. فأسرع المدير الوقتي لدى صراخ عزيز وخفَّ وراءه الاتباع الذين كانوا يدفعون إحدى العجلات الى الخطّ الرابع. عند هذا كان الضجيج قد انتشر في الخانة فانتصب يوسف على عتبة الباب مع بعض العملة ينتظرون مرور المحمل.

في تلك الآونة كانت النساء مجتمعات تحت شجرة الطلح يتحدثن في شؤون شتّى فسمعن الضوضاء فهجن هياجهنَّ ورفعن أذرعهنَّ الى السماء مستغيثاتٍ وخفَّ الاولاد الاحداث الى مكان الحادثة ولبثوا مدهوشين أمام المحمل حيث كان عزيز وغيره ينقلون جثّة سالم.

أمّا السيد اديب فقد امتطى جواده وأسرع الى الاتيان بالطبيب من قصبة جونية، في حين كانت الام سالم تنطرح على جثّة زوجها وتحاول أن توقظهُ ببكائها؛ وأمّا السيدة فارس فقد كانت تهتمّ بالاولاد، والسيدة بطرس تتعهَّد المريض بعنايتها، والسيدة اديب تأتيهِ بلفائف الكتّان والقطن فضلاً عن السيدة عزيز التي كانت تضنُّ بتقديم بعض ما يتّسع لها من الخيرات

فتقدّم لهُ عنايتها وأتعابها وتقف نفسها لتصرف الليل أمام وسادته.

إن من الواجب المقدّس عند القرويين أن يسرعوا الى حيث تقع المصائب ليُغيثوا مظلوماً أو يُنجدوا محزوناً: إنهم يذهبون الى الجهة التي تقودهم اليها عاطفة قلوبهم، فطرةٌ عذبة تدفع الانسان الى معاضدة أخيهِ الانسان، ميلٌ شريف الى الحبّ المجرّد والمواساة المقدّسة.

يجد الاغنياء خدماً أجراء يقومون بواجبهم لقاء أثمانٍ، ويجدُ الفقراء عضداً وجيراناً يندفعون بعطفٍ وشفقة في سبيل المحبة التي تربطهم؛ فالمأوى الوضيع الذي تزوره الاوجاع والنكبات يعرف كما تعرف القصور معاني الإخاء وسلوى العطف والحنان.

جاء الطبيب بعد هُنيهةٍ فقطع الرجاء من شفاء المريض، لانّ الفالج الذي تسلّط على شطر كبيرٍ من الجسد كان قد امتدّ الى الدماغ.

بقي المسكين ثمانية أيام يتردّد بين الموت والحياة حتى فاجأتهُ المنيّة قبل أن تمنحهُ ساعةً يستفيق فيها فيرى ابناءه وامرأته

وقفت الام سالم أمام جثّة زوجها وأخذت تقصُّ على مسامع جاراتها المقاصد التي تنويها في المستقبل. كان لهذه الام أخٌ بكرٌ يحترف الحراثة في «زحلة» وكان مضطراً الى خادمة لانهُ أرمل، فعرض على شقيقتهِ أن تحلّ محلّ تلك الخادمة وقال لها إنهُ يهيء عملاً لاولادها ويؤجر فريداً لاحد المتكرين في الضواحي لكي يحرس مواشيهُ ومزروعاتهِ. فسألت السيدة اديب فريداً يوماً عمّا اذا كان يرضى بذلك، فأجابها باشارةٍ لم تفهمها السيدة وأخذ يفكّر قائلاً في نفسهِ: «أمنَ الممكن أن أذهب مع تلك المرأة وهؤلاء الاولاد، وأترك الذين يعطفون عليَّ ويتعهّدونني بعنايتهم كعائلة فارس واديب وبطرس ونجيب ولبيب وراغب؟»

لم يكن سالم سوى بهيمةٍ إلّا أنهُ كان والد فريد! ففي مدّة حياتهِ لم

تجرؤ الأم الشرسة أن تحرم الولد من الخبز وتسيء اليه إساءة عظيمة؛ ولكن اليوم، وقد أصبح المسكين مُلكاً لها تتصرّف به تصرّفاً مطلقاً، فأيّ عذاب يُتوقع له؟

أجل، سيُرى محروماً من المدارس والكتب والمعلمين؛ سيرى نفسهُ نازلاً عند رغائب غرباء لا يفهم لغاتهم ولا يدرك منطوياتهم! سيضطرّ الى حراسة المواشي على المرتفعات اللاّئي بالصخور مع كلاب تخيفهُ بأنيابها المكشّرة! سيرى جميع أيامهِ متساوية متشابهة حاملةً اليهِ مشاهد الآلام والبؤس ولا أمل فيها ولا رجاء! ستحتجب عنه الآحاد السعيدة التي تذوّق طعمها طيلة سنين! سيصبح فريد راعياً حيل بينهُ وبين محبّيهِ وبين محطّة جونية التي هي وطنهُ الحقيقيّ!

صرف الولد الايام التي تلت موت والده حزيناً حتى الموت، لا ينبس ببنت شفة كأنهُ أخرس قضت عليهِ الحياة ألّا يفوه بكلمة؛ فما غُيب سالم في التراب ولبست الأم الشرسة ثوبها الحداديّ حتى بدأت تهيء أمتعةَ منزلها في صناديق قديمة قائلةً لاولادها: «ليس الآن وقت البكاء فقوموا للعمل! سنبيع أمتعتنا الثمينة لندفع ديون الخبّاز والعطّارين، ويجب أن نُعدّ ما يبقى ونضعهُ في مركبة القطار قبل مرور يومين من هذا التاريخ، فأخي ينتظر قدومنا في أواخر هذا الاسبوع.»

في أثناء ذلك كانت تنتهر فريداً وتصفعهُ بقساوةٍ لانهُ لم يسرع لقضاء حاجاتها كما ترغب، ثم تقول له: «إنك لبهيمة لا فهم لها، فسأعلمك كيف يجب أن تقاسي من الضرب أنواعاً.»

أمّا أولادها فكانوا يسخرون منهُ وهم جلوسٌ في الغرفة ويقولون له: «آه يا فريد ستحرس المواشي الى جنب الذئب، فتتعلّم هناك كيف يجب أن تكون السيادة!»

وفي الغد بينما كانت الأُم سالم تبيع الامتعة من الراغبين في شرائها فتشوا عن فريد فلم يجدوه، ولم يأت لاخذ فطوره كالعادة؛ فأخذوا يبحثون عنهُ في كل مكان بدون أن يعثروا عليهِ؛ فقلق المستأجرون قلقاً شديداً إلّا أن الأُم سالم طمأنتهم قائلةً: «إن هذا السيد الجميل قد غضب لانهُ رآني أبيع أثاث والده فهو بالرغم من صغارتهِ كثير الكبرياء؛ ولكن سأعرف كيف أنزع منهُ ذلك الداء.»

فسألتها السيدة اديب قائلةً: «الى أين ترينهُ هرب؟» فأجابتها: «إنهُ ولا ريب يتباكى في إحدى الزوايا فقرّي عيناً وسترينهُ في المساء مسرعاً الى طلب الحساء لسدّ جوعه.» قالت ذلك وعادت الى عملها بهدوء وسكينة.

بعد هنيهةٍ اتجهت السيدة فارس والسيدة اديب الى المنزل، وما أوشكتا تبتعدان حتى قالت الاولى: «يا لهُ ولداً بائساً! إنّ أوجاعهُ لتؤلمني أشدّ الالم! فما يكون أمره مع تلك الام الشرسة التي تمقته وتتعمّد ضرره؟ أراني قلقة البال عليهِ، فأين هو يا ترى؟»

فقالت الأُخرى: «لا أظنُّ أن الاولاد يدركون طرائق الهرب، ثم إنّ فريداً صفر اليدين ولا يعرف أحداً يلجأُ اليهِ...»

فأجابتها السيدة فارس: «أصبتِ ولكن لا أدري لماذا أنا خائفة!»

في تلك الدقيقة كانت الفتاة الصغيرة تُصغي الى حديث أُمها وعلى محيّاها أمارات الوجل والريبة.

أيّة فكرةٍ أم أيّ مقصدٍ خفيّ كان ينبت في ذلك الرأس الجميل الذي لم يبلغ بعد عامه السادس؟

عندما صعدت السيدة فارس الى غرفتها وجلست الى آلة الخياطة لتنجزَ عملها احتالت الفتاة الصغيرة على رفيقاتها اللواتي كنَّ يلعبن تحت شجرة الطلح

وابتعدت خفيةً حتى توارت عن الانظار فانسأت وراء الاشجار واحتجبت خلف أغراس الكرمة.

وبعد مضيء ثوانٍ قلائل كانت الفتاة تجتاز الطريق بالرغم من نباح الكلابِ وتنحدر الى حديقة المحطّة من ثُغرة السياج خائفة من أن تشعر بيدها تلامس حشرة أليمة أو حيّة سامّة.

بعد ذلك اتجهت بخطى عَجِلة الى زاوية من الحديقة ظليلة هي غيضةٌ ملأى بشجر الغار تتخلّلها أغراس ذات أغصان لـاعة وأفنان محدّدة الاطراف تمتدُّ من شجرات الندِ الى مطارح النبات والعوسج ؛ وكانت تعرف كلَّ المعرفة تلك الجزيرة الصغيرة الطافحة بالخضرة التي عندها لبيب راغب بهذا الاسم : « مدينة الازهار. »

كان ابن الرئيس قد احتفظ في تلك الاجمة بغرسةٍ من زهر « الياسمين » الابيض تنحدر الى الجهات الاربع بأغصانها المثقلة بالازهار وتبعث رائحةً زكيّة الى أطراف الاجمة. على قمّة هذه الشجرة سمّر لبيب خشبةً في مذاري الاغصان كان يتسلّق اليها في ساعات الوحدة ويصرف وقتاً طويلاً في قراءة مؤلّفات أدباء وطنِه.

أمـا فريد فكان يختلف الى هـذه الأجمة كلّما أراد الهرب من وجـه الأمّ سالم ويجثم في مخبإٍ أخضر بنَتْ جدرانهُ أوراق الغار الكثيفة وانفرجت عن أغصان ترتعش فيها أوراقها الخضراء.. وكان رفـاقهُ الاحداث يعرفون سرَّ عزلته هذه، إلّا أن الفتاة ابنة اديب كانت في المدرسة يوم ذاك وكان اديب يتلقّى أمثولته العربيّة في منزل كاهن جونية فما بقي في البيت إلّا الفتاة فارس الملقّبة بالفتاة الزرقاء.

عندما أبصرت هذه أمّها مضطربة البال قالت في نفسها : « اذا لم يكن قـد هرب فهو بدون شك مختبئ في الاجمة التي تعوّد الفرار اليها ؛ ولكن

اذا كشفت أمره لا تتردد الام سالم أن تذهب اليه وتُشبعهُ ضرباً ، فالاحرى بي أن أسرع اليه وأخبره عمّا جدّ . »

أزاحت الاغصان بتأنٍ وانسلت الى داخل المخبأ فرأت فريداً مضّجعاً على الحضيض يبكي وقد ألقى رأسه على كتفهِ المنحنية الى الأمام .

كان يبكي كل من يُحبّ ! كان يبكي الايام السعيدة التي صرفها ، والتي كانت شعاع أفراحهِ الضئيل ! كان يبكي عطف السيدة اديب وقبلات السيدة فارس التي أفهمتهُ معاني قبلات الأمّ ! كان يبكي لما سيلاقيهِ من شراسة الام سالم ومن الاوجاع التي تنتظره في المستقبل القريب !

كان يودّع بدموعهِ منزل عملة السكة والكنيسة الصغيرة حيث صرف أياماً عـديدة يهز المبخرة ! كان يودّع محطّة جونية حيث استيقظت روحهُ أمـام القطارات الكبيرة التي تمرُّ مقلّةً في عجلاتها أغـلال البقـاع : أطوادٌ عظيمة لا تُصدّ تنفخ في مخيّلة ولـدٍ صغير محبّة المجهول وعطش الحوادث : كان يقول بصوتٍ خافت : « أمنَ المحتمل أن أهجر جونية ؟ آه ! إنني لأوثر الموت على ذلك ! . . . »

عند هذا شعر بيدٍ تلامس كتفه فانتصب فجأةً على قدميهِ فرأى الفتاة الزرقاء تنظر اليهِ وعلى حافة أهدابها دمعتان كبيرتان !

فقالت الفتـاة : « أنا لا أودُّ أن تموت يا صديقي فريد ! » فامتقع جبين الولد باصفرار وبرقت في عينيهِ أشعّة من الجزع غريبة ؛ ثم دفع الفتاة بخشونة وقـال لها : « ماذا جئتِ تفعلين هنـا ؟ أنا لست بحاجةٍ اليك فاذهبي ! إذهبي حالاً ! » فقالت لهُ : « إنهم يبحثون عنك يا فريد ، والام سالم تناديك ! »

— دعيها تناديني ولا تقولي لأحد أين أنا !

— ولماذا ؟ إن والدتي شديدة القلق عليك فهي تعتقد أنك هربت .

— إلى أين أهرب؟ ... لا، لم أهرب! ولكنني عرفت كيف أضع حدًّا لآلامي؟

— وكيف ذلك؟

— إنك لا تفهمين لانك صغيرة.

— أبودّك أن تلبثَ طويلاً في هذا المخبأ؟

— لا، سأخرج بعد هنيهةٍ.

— وإلى أين تتَّجه؟

— هذا سرٌّ لا أقولهُ.

— لا أريد أن تموت يا فريد!

— أمّا أنا فأريد. إن من يكون مثلي شقيًا أحرى بهِ أن يموت!

عند هذا لم تملك الصغيرة نفسها فأخذت تجهش بالبكاء، فقطب الولد حاجبيهِ وقال لها بصوت جهوريّ: «إذهبي من هنا، فلقد قلت لك كلَّ شيء!» ولكن لم تمتثل لارادتهِ فقادها بيدها الى خارج المخبأ الاخضر واجتاز بها الحديقة حتى أول الطريق، وهناك قال لها: «عودي الى منزلك حالاً؛ فأنا واقفٌ في هذا المكان أترقبك حتى تبتعدي، فلا يجب أن تتلصَّصي عليَّ!»

تسلّقت الفتاة الزرقاء منحدر الطريق الضيّق وتوغلت في الكرمة المحيطة بمنزل عملة السكّة؛ فلمّا وثق فريد من ذهابها أخذ يركض في الحديقة فمرَّ أمام المستودع وتبعَ الخطَّ مدّة قصيرة حتى وقف في منعرجٍ بالقرب من السلك الحديديّ فأبصر منحدرين يبلغ علوُّ كل منهما ستّة أو سبعة أمتار يرتفعان من اليمين الى الشمال كحاجزين عاشبين، وينتهيان عند سياجٍ ذي مسلك صعب تخلّلتهُ الاشواك من كل جهاته.

وقف فريد في وسط الطريق وشخص أمامهُ الى فوهة الجبل المشؤومة حيث سيمرُّ القطار بعد بضع ثوانٍ قاذفاً الدخان والشعلة من داخونهِ المستطيل؛

ثم حوّل نظره الى أعشاب المنحدر المرتفع والى سماء الصيف الهادئة وتمتم قائلاً: «ربّاه! قيل لي إن من الكفر أن يقتل الانسان نفسهُ! فلو كنت رجلاً لما أقدمت على الانتحار بل جاهدت في الحياة جهاد الابطال، ولكنني ولدٌ، وما على الولد أن يقاومَ ويجاهد.

آه! إنَّ من الصعب أن أتجلّد على الاوجاع! فاغفر يا إلهي إساءتي هذه، تلك الاساءة التي لا تُرضيك!»

ثم انطرح على السلك الحديديّ ووضع رأسهُ الاشقر على ذراعيهِ المكتّفتين. عند هذا استيقظت في نفسهِ ذكرى عذبة، فاخذ يفكّر في غرفةٍ ملأى بصور القديسين وطافحة بالازهار المتباينة الشكل والرائحة وقال: «آه! أين غرفة السيدة فارس!... لقد تذوّقت قليلاً عذوبة الحياة في هذه الارض! فهل تهبني السيدة العذراء زاوية صغيرة في سمائها الجميلة؟...

٨

عندما عادت الفتاة الصغيرة الى منزلها وامتثلت أمام أمها قالت لها: «لقد رأيت فريداً يبكي متحسّراً في مخباءٍ من زهر في طرف الحديقة، ولقد قال لي إنَّ بودّه أن يموت!» فتركت السيدة فارس آلة الخياطة وقالت لابنتها: «كيف يموت؟» عند هذا مرّت في مخيلتها فكرةٌ رهيبة إذ إنها خشيت أن يُلقي بنفسهِ تحت عجلات القطار، فقالت في نفسها: «يجب أن أسرع قبل مجيء القطار.» ثم خرجت من مخدعها وأطلعت امرأة اديب على جليّة الامر.

— سأتبعكِ عن قرب فلا بدَّ لواحدة منّا أن تعرف مكانه. سيري أنتِ في الجهة اليسرى فأسير في اليمنى. تحدّثني نفسي أنهُ مختبئٌ وراء محرس الخفير.

– أمَّا أنا فأظنّهُ منطرحاً على مرفقِ السلك الحديديّ .

– فلنذهب بحراسة الله !

فتوسلت الفتاة الزرقاء الى أمها أن تسمح لها بالذهاب معها ؛ فأجابتها هذه : « إنك لا تقدرين أن تسرعي في مشيكِ يا عزيزتي . »

– لا بل أُسرع كما تسرع ابنة اديب .

إذ ذاك اجتازت الأُم وابنتها طريقَ الحديقة حتى بلغتا الى المكان المقصود فأزاحت السيدة فارس أغصان الدغلة الملأى بالشوك وانحنت لترى فأبصرت فريداً مضجعاً على السلك الحديديّ وشعره الاشقر يلمع في شعاع الشمس بين أزهار شقائق النعمان ، فصرخت مذعورة : « فريد ! فريد ! إنهض ! » أمّا الولد فبقي بدون حراك .

– لقد قرب وقت القطار ايها التعس ، فانهض .

ولكن فريد بقي بدون حراك .

– أنا السيدة فارس التي تحبك ؛ فاذا كنت تحبني كما كنت تقول فانهض وتعال اليَّ !

في تلك الدقيقة تحرّك رأس فريد الاشقر ، ورفع عينيهِ المغرورقتين بالدموع ، فابصرت أم الفتاة شحوب وجههِ الغريب وقد ارتسمت عليهِ أمارات اليأس فقالت : « فريد ما بدا الك ؟ » فرفع الولد ذراعيهِ وتمتم قائلاً : « أجل ، هذا أنتِ ! لقد كنت شديدة العطف عليَّ ، ولكن دعيني أموت ! » وعاد الى ما كان عليهِ .

فتوسّلت اليهِ أن ينهض وقالت له بصوتٍ ملؤه الذعر : « لقد قرب وقت القطار يا فريد ! فاتبعني قبل حلول الخطر ! إن من الجبانة أن يقتل الانسان نفسهُ ، ومن الكفر أن ينتحر حتى أشقى الناس ! فانهض ولا تكابر ! إنهض يا عزيزي فريد ، إنهض ! » ثم حاولت بدون جدوى أن تكتشف سرّاً

يؤدّي الى خارج السياج العظيم في حين كان القطار يُعلن قدومهُ بضجّة هائلة ؛ وفجأةً صرخت السيدة فارس صوتاً ملوءُه الخوف والرهبة لتوجس الفتى اليائس وقد أبصرت ممرًا ضيقًا في السياج المذكور ، أمَّا الفتاة الزرقاء فقالت لفريد بصوتٍ خافت : « اذا بقيت معانداً ولم تمتثل لارادة أمي لا أتحوّل شبراً عن السلك فيقضي عليَّ وعليك وتثكل والدتي ابنتها الزرقاء ! . . . »

عند هذا تدفقت العجلات قاذفةً تحت دواليبها شرراً من نار ، فصرخت السيدة فارس بصوتٍ ملوءُه الذعر : « أنقذ وحيدتي ! أنقذها يا فريد ! » فوثب الولدُ من على السلك الحديديّ الذي كان يرتجُّ لدى قدوم القطار الهائل وأخذ الفتاة الزرقاء بين ذراعيهِ وقفز الى المنحدر ومنهُ الى السياج بخفّةٍ تقرب منها خفّة القردة ! عند ذا مرق القطار كالسهم أو كوميضة البرق مصعداً من فوهتهِ غيوم الدخان الكثيف ومثيراً بصفيره الرهيب أوراق الشقيق الخفيفة.

طفرت الدموع من مقلتي السيدة فارس فضمّت اليها وحيدتها الصغيرة والتفتت الى فريد قائلةً : « لقد سببت لي شقاوتك ألماً لا ألمَ بعده يا فريد ! فعدني بأنك لن ترجع الى مثلها بعد اليوم ! » فتمتم الولد بيأس وحزن : « آه يا سيدتي ! لو لم تحولي بيني وبين الموت لكنتِ أنقذتني من العذاب الدائم ! لا ! لا توبّخيني ! لو عرفت أيَّ أملٍ هو الموت عند البائسين التعساء لما تردّدت عن عذري ! . . . أنا بائس تعس يا سيدتي ! . . . أتودّين أن أذهب غداً مع الأمّ سالم ؟

فلم تملك السيدة نفسها من الشفقة لدى سماعها تلك الكلمات الطافحة بالحزن والألم فصرخت بدون أن تقدّر عواقب العهد الذي أخذتهُ على نفسها وقالت لـهُ : « لا يا عزيزي فريد ، سوف لا تذهب غداً مع الام سالم ، بل تبقى عندي.

— لا يمكن ذلك يا سيدتي.

— قلت لك إنك لن تذهب ، فالأم سالم لا يهمها كثيراً ذهابك وبقاؤك فهي لا تتألم من هجرك وتركك لمن يرغب في حفظك عنده .

— ولكنني لا أزال صغيراً يا سيدتي ، فما النتيجة من إبقائي عندك ، أنا لا أحسن إجراء شيء ؟

— لا أودّ أن أتخذك خادماً يا فريد بل ابناً وشقيقاً أكبر لوحيدتي .

فاهتزّ الولد وجعل يبكي ويضحك ثم أخذ يدَ منقذته وملأها بالدموع والقبلات وقال : « أحقيقةً أنك تتخذينني ولداً لك ؟ أتنقذينني من الاهانة والضرب ؟ أأقدر بعد اليوم أن أذهب الى المدرسة وأعود الى الحرس ؟ أأبقى في جونية بين عملة السكة ؟ آه يا سيدتي ! اذا فعلتِ ذلك أقف حياتي لأجلك وأضع بين يديك كلّ ما يهبني المستقبل من مالٍ وقوى ! . . .

كان المغيب يذهب السهول بأشعتهِ المتضائلة ويطفو على الجداول الرقراقة وعلى جفنات الكروم ذات الاوراق الخضراء التي كانت لا تزال مستبقية نقاطاً بيضاء من الاملاح المركّبة من روح الزاج ؛ فجذبت السيدة فارس رأس فريد الى كتفها وقالت : « فريد ، يجب أن تتعوّد الافراح يا بنيّ ؛ فلقد ذقت من الشقاء ما كفاك . إن الله لرحيمٌ ويعطف على البائسين !

— آه ! لا أصدق ما قلت لي ! أحقيقةً أنك ترغبين في إبقائي عندك يا سيدتي ؟

— لا أودّ أن تدعوني بسيدتك من الآن فصاعداً بل أرغب اليك أن تناديني بيا أمي . لقد سمح الله أن أنقذك من الموت ، وسأنقذك من البؤس أيضاً ؛ فاسأله معي يا عزيزي أن يعضدني لأجعلك رجلاً صالحاً للمستقبل .

فاستولت على الولد هزّة الفرح فقال : « أجل ، أجل ، إني أعدك بذلك ، فسأكون رجلاً صالحاً . ليس من الصعب عليّ أن أكون رجلاً صالحاً . . . إن من يكون سعيداً لا بدّ له أن يكون حسن السيرة طيّب الاخلاق . . . »

في تلك الساعة سطع وجهُ فريد المجد وبدت عليهِ أمارات الغبطة والزهو كأنَّ شبح السعادة أعاره ذلك التبديل الفجائيّ . أما قلبهُ فكان ينبض بشدَّة تحت قميصهِ الممزَّق فقال : «آه ! سأصبح سعيداً بعد العذاب الاليم ! فهل في العالم من هو أكثر سعادةً مني ؟»

٩

كانت ليلة آب صافيـة الأديم تسبح في أمواج عذبة من أشعَّة القمر ؛ وكان سكَّان المنزل راقدين في مضاجعهم إلَّا السيدة فارس فانها بقيت تفكّر أمـام نافذة غرفتها مصغيةً الى الاجراس الكهربائيَّة تُعلنُ قدومَ القطار الاخير !

في تلك الساعة كانت السيدة بطرس تنتظر زوجها مستلقيةً بسكون على مقعدٍ من خيزران وقد استسلمت لاحلامٍ روائيَّة ؛ وكانت السيدة فـارس ترقب أيضاً قـدوم زوجها في القطار الاخير وهي قلقةً وجلة تتنازعها عوامل الخوف خلافـاً لعاداتها وتنهض من حين الى حين فتدور دورتين في الغرفة وتقف أمام صورة العذراء قائلةً بحرارةٍ وتقوى : «أيتها الام القديسة أزيلي الخوف من قلبي وتكلَّمي عني وساعديني !»

ما الذي سبَّب هذا الخوف للسيدة فارس ؟ أيُّ أمر يريبها في عودة زوجٍ لم يتعمَّد لها أقلَّ ضرر في حياتهِ ؟

ذلك لانها تبنَّت فريداً لتنقذه من شرّ الام الشرسة قبل أن تعرف رأي زوجها في ذلك . لقد دفعها قلبها الطيّب الى سماع صوت الرحمـة فوثبت بها عاطفة الشفقة الى نجدة المظلوم فكانت له أمًّا !

عند ما أبصرت السيدة اديب فريداً الصغير عائداً بكلّ هدوء الى جنب

السيدة فـارس وابنتها الفتاة الزرقاء. ظنّت أنهُ لم يحدث هناك فاجعةٌ أليمة، وببضع كلمات أخبرتها أم الفتاة عمّا جرى وعطفت قائلة: «إنك لا تجهلين ياسيدة اديب أيّ تأثيرٍ موجع تسبّبهُ رؤية البائسين للقلوب الحسّاسة. ساحتفظ بفريد في منزلي وأكون لهُ أمّاً تتعهّده بعناية وعطف.»

فلم تتردّد السيدة أديب أن قالت: «إنهُ لعملٌ شريفٌ يا سيدة فارس فقرّي عيناً وثقي بأنني لا أتأخر عن معاونتك في صنيعك الجميل... ولكن مـا يكون من أمر زوجك؟ إن الرجال كما لا يُخفى عليك لا يشعرون بالواجب المقدّس كما تشعر النساء... أفتظنّين أن ذلك لا يزعجهُ؟» فأجابتها: «كثيراً ما وافقني على كل ما رغبت فيه.»

— إنك لكثيرة الحظّ يا سيدة فارس! أمّا عندنا فغير ذلك؛ أنت تعرفين أنهُ زبدة الرجال الكرماء... ولكن اذا رغبت اليهِ أن يتبنّى فريداً فلا يوافقني إلّا على الخصام والنزاع! مع أنّا نملك بقعاً عديدة من الارض فضلاً عن المنازل التي نؤجرها وعن الفتاة الوحيدة ذات المقلتين السوداوين اللتين تستلزمان مهراً صالحاً.»

— أمّا نحن فلا نملك ما يوازي ثمناً باهظاً في هذه الحياة إلّا أنّا نكدّ فوق ما يتّسع لنا والله يأخذ الباقي على عهدتهِ!»

قالت ذلك وأخذت تفكر في ما قالتهُ لها السيدة اديب فاضطربت اضطراباً شديداً وجعلت تحدث نفسها فيما يلي: «تُرى ما يجدُّ بيننا اذا استقبح زوجي مـا صنعت ولامني على فعلي هذا؟ ففارس لا يذهب في مذهب إيماني، ولا يدرك أن قدحاً من المـاء يُعطى للفقير في سبيل الله لا يبقى بلا أجر! إنهُ لا يشعر بيد الحكمة الالهيّـة، تلك اليد المذبة، تمتدّ بحنوّ وعطف فوق الذين يركنون اليها!»

كلُّ هذه الافكار كانت تتناوب السيّدة فارس؛ أمّا زوجها فكان ينوء

تحت أثقالٍ مرهقة فيتجلّد ويقاوم.

ليس من الهيّنات أن يتحمّل الرجل دفع الاجور والقيام بأودِ ثلاثة أجسادٍ تتطلّب عنايةً وقوتاً!

ليس من المشاكل البسيطة أن يقوم الانسان بتثقيف أبنائهِ الصغار! ففارس كسائر عملة السكّة يحلم أحلاماً شتّى بمستقبل أولاده، والفتاة الزرقاء التي وهبها الله ذكاء ناضجاً قبل أوانه سيُقدَّر لها يوماً أن تدخل في عداد الموظّفات، وبطرس ذو الروح المفطورة على النشاط سينخرط في سلك عملة السكّة، وبما أنهُ أكثر علماً من أبيهِ سيتفوّق عليهِ ولا يعتّم أن يتوصّل بسهولة الى مركزٍ سامٍ؛ وأمّا بولس الصغير ذو الطباع السليمة والعريكة الليّنة فسينال معاش تلميذٍ في الجامعة.

كلُّ هذه الاحلام كانت تتناوب السيدة فارس، فقالت في نفسها: «اذا أفلح الاولاد وتيسر لهم كل هذا فأكون قد سعدتُ بعض السعد، ولكني لا أطلب إلّا أن أراهم كرماء الاخلاق نبلاء النفوس يتمتّعون بصحّةٍ قويّة وبهيئةٍ حسنة كهيئة والدهم.»

أمّا فارس فكان أكثر طماعية من امرأتهِ إذ إنهُ كان يدرك أيّةَ صعوبةٍ يكابدها الانسان في الحصول على قوتهِ الضروري؛ لذلك كان يتمنّى لاولاده حياةً أقلّ عناء من حياتهِ.

إنَّ سائق القطار لنوعٌ من الرجال الاشقياء، فهو يصرف وقتهُ في إضرام النار وحراسة الاساطين؛ ويلعب بالخطر المحدق بهِ، وينشق مسحوق الفحم، ويشرق الدخان المتصاعد في الهواء. إنهُ يقضي ساعات عمله منتصباً على قدميهِ لا يملك مقعداً يستريح عليهِ أو منضدةً يجلس اليها في ساعة فطوره.

إلا أن فارس كان ذا قوّة هائلة ولولا ذلك لذهب ضحيّة جهاده كما ذهب غيره من ضعفاء البنية.

كان عليه ان يقاسي ما استطاع في سبيل أولاده ومستقبلهم، في سبيل كيانهم وراحتهم؛ والذي شجّعهُ على احتمال تلك المصاعب هو يقينهُ أنّ وراء الجهاد حدّاً تكلله عذوبة العزلة..

أيّ رجل لم يسمع هذه العبارة صادرة من أفواه العملة: «عند ما أحظى بعزلتي!» ومن لا يدرك أيّة آمالٍ عذبة تلامس أرواح العمَلة الاشداء الذين يرون مساء العمر من خلال أحلامهم مذهّباً بأشعّة الراحة والطمأنينة؟

كان فارس قد أوقف في مخيّلتهِ مقاصد عزلته ككثيرٍ من رفاقهِ، وكان يملك في نواحي البقاع قطعة ارض ورثهـا عن عم قديم كان يحترف الحراثة، ففكر ان يبني بيتاً صغيراً في وسط الحديقة يقيم بهِ مع امرأتهِ وأولاده ويصرف شيخوختهُ بتلمب الحقل والعناية بثماره تاركاً امرأتهُ تتولّى زرع البنفسج وهو زهرٌ يُباع أكثر من غيره في أسواق بيروت.

كان يُرى الحقل اللامـع من تلك الحديقة، ومياه البردونيّ الزرقاء، ومـدينة زحلة الضاحكة تحت قباب أجراسها المرتفعة تطفو أخيلة جدرانها الورديّة على تموجات النهر الجميل.

ففي أحد الايام سألهُ رفاقهُ قائلين: «ما الذي ستراه من طرف حجرتك يا فارس؟»

— أشياء كثيرة يا رفاقي، أشياء جميلة عذبة؛ فعلى مقربة من حجرتي ينبسط طريقٌ حديديّ لا يحرمني رؤية القطارات!

— إنك لنشيطٌ سعيد يا فارس! فستأكل من ثمار شجراتك وتشرب من عصير كرمتك. إنّا لنرغب في مثل هذه الحياة عندما تدقّ ساعة العزلة.

***

في تلك الآونة كانت السيدة فارس متكئةً على حافة نافذتها تتسمّع الى دويّ القطـار الاخير الذي وصل الى المحطّة يملأ سكينة الليل، وتنظر الى المسافرين يذهبون ويجيئون في ساحة المحطّة؛ وكانت تفكّر قائلةً في نفسها: سيحضرُ زوجي بعد دقائق قليلة! يا لله كم أنا خائفة! لقد طالما وافقني على أفكاري الدينيّة، ولكن مَن يعلم!... ربما تضجره شفقتي وإحساسي! ربما يستفيد من تغافلي الذي حدث هذا النهار ليُلقي عليّ تبعةَ تقواي المتطرّفة ويتهم الدين بكلماتٍ تحفرُ هوّةً مشؤومة بين روحين!

أيّ ذنبٍ جنيت يا إلهي؟ ألاجل غريب مسكين أعرّضُ سلام العائلة للخصام وأضحي بالغبطة التي تجمعنا؟»

عند هـذا خفتت الاصوات في المحطة وعاد العملةُ الى مآويهم، فسمعت السيدة فارس تمتمة أصوات تلامس هدأة الليل العذب! وما لبثت أن تبينت نُطق عزيز وصوت بطرس الحادّ وإنشاد نجيب الجميل.

كان هؤلاء الثلاثة يتقدمون الى المنزل فنهضت السيدة بطرس عن مقعدها ونظرت الى القمر نظرةً طويلة ثمّ قـالت لزوجها بصوتٍ تراودهُ نبرات الضجر: «إنّ الليلة لشديدة الحرّ يا بطرس، فهل مـن كأس خمر أشربها؟» فتمتم بطرس قائلاً: «ليس لديّ خمرٌ أقدمها لك.» فقال عزيز: «ليس عليك إلاّ أن تنزلي الى خمّارة يوسف، أفلا تسمعين سدادات القناني تقفز من أفواهها في ذلك الفنـدق؟» فتوسّلت السيدة بطرس الى زوجها أن يأتيها بكأس من المرطّبات لانها شديدة الظمأ.

فأجابها بخشونة: «إشربي من الماء الصافية فهي شرابٌ صحي.» فتنهدت المرأة الجميلة وقالت: «آه! أيتها الحقائق البشعة! أين الامراء الجذّابون الذين لا يضنُّون على جميلاتهم بخمور قبرس والشراب المنعش مع الخبز المعسّل ومربيات الورد؟!...»

فقال الزوج: «أين هم؟ إنهم يرقدون في مطاوي رواياتك المكردسة في السلال بين جواربي المخرّقة وطرازك الابديّ. فهولاء الامراء كانوا اغنياء، ونساؤهم اللواتي كنَّ يعتنين بما يأول الى راحتهم لم يكنَّ يصرفنَ أوقاتهنَّ بقراءة الروايات نظيرك بل كنَّ ينصرفنَ عن ذلك الى القيام بأمور البيت حقَّ القيام!»

فلم يُصبْ هذا الكلام مكان التأثير من قلب السيدة بطرس فقالت لزوجها: «إن بك روحاً غير شاعرة يا عزيزي بطرس! فلا أسمع منك إلاّ هذه الكلمات المملّة «النظام في البيت! القيام بتدبير البيت!» كأنك لا ترى غير ذلك أمام عينيك! ولا تظنّ أن في الحياة أشياء غير هذه!»

فضجر بطرس من حديث امرأتهِ فقال لها: «تعالي ننام! فأنت امرأة قليلة التبصّر، ولا نتيجة للجدال معك.»

فأطلقت السيدة بطرس زفرةً حرّى وقالت: «يا لها طباعاً غريبة! متى تتمثّل بهدوء السيد عزيز وعذوبة السيد فارس ولين عريكته؟»

كانت جثّة فارس ذات الاكتاف العريضة ترتسم كتلةً حالكة على الليلة القمراء بالقرب من خيال بطرس الضئيل؛ فعندما سمع السيدة بطرس تتلفظ بهذه الكلمات أفاق من جمدتهِ فقال ضاحكاً: «إسمحوا لي أن أجتمع بامرأتي الآن لئلا تستبطئُ غيابي فتؤنبني عليهِ.» قال هذا وصعِدَ الدرج ببعض وثبات، ولمّا بلغ الباب فتحه بخفة فأبصر امرأته واقفة امام النافذة فأستغرب من سهرها في تلك الساعة المتأخرة من الليل فقال لها: «ما بك لا

ترالين يقظى حتى الآن ؟ فهل طرأ على الصغار طارئ ؟ » —لا يا فارس ، ليس من طارئ هناك !

وشخصت الى زوجها بعيون ملؤها دموع !

— ليس من طارئ، وتبكين ؟ ماذا جرى ؟ تكلمي حالاً !

— آه ! إنَّ عواطفي تتفطر هذا المساء !

ثمَّ أسندت ظهرها الى النافذة وأخذت تقصُّ على زوجها بصوت خافت كل ما حدث في النهار ؛ فقال فارس :

— إنَّ صغيرتنا الزرقاء لنشيطة ! ولكن أيُّ داعٍ دفع ذلك الغلام الى الانتحار ؟

— قال إنه يؤثر الموت ألف مرّة على الذهاب غداً مع الام سالم

— فصمت فارس هنيهة ، وسرّح طرفه في السهل الهاجع والاوراق الخرساء والسماء الرحبة حيث يضيء القمر الكامل ، ثمَّ قال : « لقد خطر لي فكرةٌ يا عزيزتي ، ففريد يُدبّ فيَّ عوامل الرأفة والشفقة ، إنهُ لولد طيّب السيرة وأمانته تبشره بمستقبل حسن . ولكنْ اذا بقي تحت سلطة الأم سالم لا يلبث أن يصبح شريداً . . . »

— هذا ما أخشاه !

— أتعرفين يا عزيزتي أنَّ هذا الولد يذكرني بعهد حداثتي ، أيام كنتُ أنشأ في مذاهب الصدف ، لا أمَّ تتعهّدني ولا أباً ؟ كنت أسير الى الشقاوة يوم ذاك ، إلاّ أنني صادفت في طريقي ذلك العم البستانيَّ الذي تعهّدني بنصائحهِ وتربيتهِ النبيلة وأخرج مني الرجل الذي أمثِّلهُ في هذه الحياة !

— إنك لمثال الرجال يا فارس وأنا أفتخر بك !

— ولكن أجيبيني ، اذا صنعنا مع ذلك الطريد ما صنعَ معي ذلك العمَّ . . . اذا احتفظنا بفريد عندنا . . .

فانطرحت السيدة فارس على صدر زوجها وأجهشت بالبكاء، فقال لها: «لقد سببت لك كآبةً يا عزيزتي، أتخشين أن يكون هذا الولد عبئاً ثقيلاً على عاتقنا؟» أمّا هي فكاد يغمى عليها من الفرح فأجابت بصوتٍ خافت: «لا، لا أخشى ذلك... فهذه الفكرة مرّت بي قبل أن تمرّ بك، ولقد وعدت فريدًا بابقائه عندنا... إلّا أنني لم أجسر أن أكاشفك بذلك مخافة أن توبخني وتغضب عليّ...»

فأخذها بين ذراعيهِ القويّتين وضمّها الى قلبهِ الباسل وقال: «أيّ يومٍ تردّدنا عن عمل الخير يا حبيبتي؟ أيّ يومٍ تخوّفنا العمل والجهاد؟ أليس الجميل الذي نصنعهُ مع البائسين هو الذي يهبط نعماً وبركات علينا جميعاً؟»

فتمتمت المرأة وقد غصّت بدموعها:

— إنني ما أحببتك يوماً كما أحببتك الآن! فضغط بها على صدره وطبع على جبهتها بشفتيهِ المضطربتين قبلةً حرّى لم يعرف هو نفسهُ ما كان يختلج فيها أشدّ من الآخر هل العاطفة أم الاحترام.

في تلك الآونة كانت الشمعة قد احترقت الى طرفها فتمايلت وانطفأت، وحلّت مكانها عذوبة الشعاع المنحدر من القمر غاسلة بنورها الازرق تلك الغرفة الصغيرة ذات الاردية البيضاء.

ظلّ فارس مبقياً امرأتهُ بين ذراعيهِ يمدّ قبلتهُ النقيّة على جبينها النقيّ، وكان قلباهما الامينان يخفقان بشدّة في هدأة الليل، أمام البدر الجميل والسماء الزرقاء.

١٠

بعد مضي شهرين، أي عند دخول التلامذة الى المدارس، كان ولد صغير صاعداً الى قطار بيروت مع ابن عزيز وفي يده سلّة وضع فيها فطوره وعلى ظهره حقيبة تحتوي على كتب مدرسية.

كان هذا الولد فريد البائس الذي كثيراً ما أرهقته الام سالم بالعذاب والجوع حتى كادت تفنيه، وقد ظهرت عليه دلائل الزهو والنشاط وتورّد خدّاه بعد الذبول

إنْ تبنّيه من فارس قد دعا سكان المنزل الى حميّة غريبة حتى رغب الجميع في أن يساعدوا ذلك الفعل الجميل بكلّ ما أوتوه من المقدرة.

فبعد القطاف قدّمت عائلة اديب الى عائلة فارس برميلاً من الخمر قائلة: إن من الضروري أن يشرب فريد الصغير!» أمّا عائلة عزيز فقد نزعت عن بخلها التي تعوّدته وعزمت أن تمنح الولد ثياباً قديمة رثت على ولدهم نبيه؛ وأمّا السيدة بطرس تلك الروح الشاعرة فبعد أن حفرت مخيّلتها لتجد هدية ذات فائدة يحتاج اليها فريد الصغير قرّرت ان تدبج لهُ منديلاً جميلاً، فضلاً عن نجيب الذي أغتنم إحدى الفرص فأخذ الولد الى بيروت حيث اشترى له قبعة وثوباً جديداً.

— ما هذا يا سيد نجيب، لقد وهبت فوق ما يتسع لك!

— أية غرابة في ذلك يا سيدة فارس؟ ألم تتبنّي الولد انتِ؟ ألم تجمعي الى أولادك الثلاثة ولداً آخر يتطلّب جهوداً للقيام بأوده كما يتطلب كلّ ولدٍ من اولادك؟ فلماذا لا تودّين من اعزب مثلي ان يضحي بجزء قليل مما ضحيت

به أنت ؟ إنني ما صنعتُ جميلاً في حياتي لانني لم أتوفق مرةً الى ذلك. أفترغبين في أن أشيح وجهي عن الرحمة كلما اتفق لي ان اصادفها في طريقي ؟ ثمَّ ان هذا الولد يا سيدة فارس ملكٌ للجميع ؛ فسيكون ولد عمّال السكة.

لا أعرف أيَّة عاطفةٍ أبوية كانت تستيقظ في قلب هذا الغلام المسنّ. إن الرحمة متى ما لامست روح إنسانٍ حرّكت فيها عجائب عظيمة !

وجد نجيب فيما بعد لذّةً عظيمة في التحدّث الى فريد فسمح له أن يختلف الى غرفتهِ ويتأمل الآثار الثمينة التي جاء بها من الجزائر ؛ ولم يمضِ وقت طويل حتى تمكّنت عرى المحبّة بينهما فأصبح نجيب لا يقرُّ له قرارٌ ما لم يجد فريداً الى جانبهِ إن في مكتبهِ وإن في المنزل.

ففي يومٍ من أواخر أيام أيلول جاء نجيب الى عائلة فارس وقال لها : « إن مستقبل الولد يهمني كثيراً ، فهو يرغب في أن يكون عاملاً في السكّة ، ولكنهُ لا يتوصّل الى مركزٍ سامٍ ما لم يتلقَّ علوماً صالحة. إن مدرسة جونية لا تكفي ؛ فالاحرى بنا أن نرسلهُ الى مدرسةٍ كبرى من مدارس بيروت ليتلقّن فيها اللغة العربيّة والرياضيّات ، وعليَّ دفع ما يترتّب من المال !

فاستغربت عائلة فارس وحاولت أن تردعهُ عن تلك الحميّة الكبيرة فقال : « ألا تدركون يا أصدقائي أن هوًى في نفسي يدفعني الى تتميم هذا الواجب ؟ كنت فيما مضى لا يلذُّ لي إلّا جمع طوابع البريد فملت عن ذلك الى التصوير ثم الى النقش ... أمّا الان فقد جنحت بكل ما بي من الميل الى الاهتمام بأمر فريد ! لا تستغربوا هذا الكرم ، فأنا لم أفعلهُ لاجلهِ بل لاجلي ... لقد أصبحت أشعر بأن تمتعي بروحٍ نبيلة تتدرّج في مدارج التقدّم والرقيّ يورثني من الفرح واللذّة أكثر بكثيرٍ ممّا تورثني إياه رؤية الطوابع البريديّة النادرة أو الصور الجميلة في مجموعة « مذهّبة ».

بدأ فريد منذ تشرين الاول بالذهاب الى بيروت كل صباح. آه ! إنَّ أبناء

عملة السكة يختلفون عن غيرهم في تلقي دروسهم ! ألم تروا مرةً في الدرجة الثانية من إحدى غرف القطار هؤلاء الصغار المجتهدين الذين منحتهم الشركة حقَّ المرور في قطاراتها بدون أن تتقاضى أُجرةً من آبائهم ليتسنى لهم تهيئة المستقبل ؟

إنهم وُقراء مجتهدون لانهم يتبعون غايةً محدودة ، فلا يكادون يبلغون الثانية أو الثالثة عشرة حتى يكونوا قد اختاروا مهنتهم المقبلة . إنهم يدركون أن من الواجب عليهم أن يقدّموا امتحاناتٍ جيّدة ليضمنوا حياتهم ، ولا يجهلون أن على اجتهادهم وكدّهم يتوقف أمر مستقبلهم . إنهم يعرفون كلَّ المعرفة أنهم أبناء عملة وأن آباءهم يعانون مرارةً وتعباً لكي يقدّموا لهم الكساء والطعام !

ليس في جيوب أبناء العملة مال ! إنهم يقنعون بالقليل ولا يتذمّرون اذا لم يجدوا في السلة السوداء التي يصحبونها الى المدرسة إلا زهيداً من الطعام ، ذلك لأنهم نشأوا على تربية تختلف عن تلك التي يتعهدها آباء ضعفاء لا يقدرون أن يمسكوا عن اولادهم الاحداث كل ما تشتهي نفوسهم من الحلاوة . لقد كبروا في وسطٍ مقتصد ، فهم لا يعتبرون نفوسهم فقراء ، بل يفكّرون مفتخرين بأن آباءهم ليسوا مديونين لاحد وانهم يستطيعون أن يرفعوا جباههم بجرأة وترفع . إن طريق المستقبل ، تلك الطريق المذهبة ، تنفتح أمام أعينهم الفخورة في حين يوافق صوت عقلهم اصوات احلامهم ! إنهم يقاسون الجهاد مهما صعب ، فهم لا يكادون يجلسون في غرفة القطار حتى يأخذوا كتبهم ويراجعوا أمثولات النهار ؛ وأحياناً يمتحنون نفوسهم بنفوسهم فيستظهرون تلك الأمثولات وأعينهم شاخصة الى زجاج المركبة حيث تتابع وراءه السهول والاشجار والمدن والقرى ، فتجتمع جواذبُ تلك المشاهد الى آيات الأسطر

المحفوظة فتبطّنها بطبيعة حقيقيّة ملؤها الحياة وتُنفذ اليها أريجاً طيّباً من الشاعريّة الغميضة.

لم يعرف فريد غبطة العلوم الانسانيّة في قاعة الدرس الكالحة بل عرفها أمام الحقول الجميلة التي تنشّرت أمام عينيه بمشاهد متحرّكة هي مشاهد المروج الخصبة والروابي العذبة والرياض الزاهرة.

كان الصبية يذهبون الى مدارسهم منذ يبدأ الضباب بالزحف على أجساد المروج، ويعودون الى مآويهم مع الشمس الراحلة في ساعة تتراءى فيها السواقي والانهر ورديّة المياه مخضّبة بألوان المغيب.

أمّا احلامهم العذبة فهي ان يكون لهم أكواخ على مقربة من سلك حديديّ أو تجاه محطة صغيرة ضاعت بين الاشجار... ذلك لانهم من عداد أبناء الشركة ولان الشركة هي ملك لهم!...

أحياناً، كانوا يفتحون مجموعة رسوم البلدان وينظرون بفرحٍ لا فرح بعده الى دائرات الطرق الحديديّة فتتراءى لهم السطور السوداء كأنها خطوط حيّة تخترق الجبال والاودية ومجاري السيول والانهر وتجمع البلدان بعضها الى بعض؛ ويخيل اليهم أنهم يسمعون دويّ القطارات يتصاعد من على هذه الاسلاك أو أنهم يبصرون رجالاً يدفعون العجلات الى أماكنها فيشعرون بأنّ شعباً من الاخوة المتآلفين يتبسّم لهم بين تلك السطور الصامتة.

وأحياناً يحُسّون بعاطفة احترام وعجبٍ تدفعهم الى الصمت أمام تلك العظمة وذلك الغنى، فيخشعون بسذاجة فطريّة!

مراراً كان يُفتح الباب الصغير ويظهر أحد المستخدمين على درجة القطار ليفتّش الركّاب فيجعل هؤلاء يضحكون قائلين: «هذه المركبة لا تُكسب الشركة ربحاً جزيلاً.» فيضحك هذا ويُغلق الباب بعد أن يقول لهم: «إن الشركة لم تمنحكم هذه المنحة في سبيل إرضائكم فقط، فاجتهدوا على

الاقل أن تكونوا عمّالاً صالحين .» فيجيبونهُ : «نعم ، إننا لا نحلم بسوى ذلك .»

أجل ، فتلك المركبة المختصّة بالتلامذة لم تكن تكسب الشركة مالاً إلّا أنها كانت تعدُّ للمستقبل القريب عمّالاً أمناء يستسهلون العمل والتضحية في سبيل إعلاء شأن الوطن .

١١

كان فريد يغذّي في صدره حسرةً عظيمة إذ إنهُ كان يخشى أن يظهر بمظهر ناكري الجميل بعد أن أكرمهُ جميع الناس وأحسنوا اليهِ لاسيما وقد اوصتهُ السيدة فارس بأن يكون طيّب الاخلاق لطيفاً .

ففي أيام الفرص الكبيرة كان يقدّم نفسهُ ليقضي حاجات جيرانهِ ، ويصحب السيد نجيباً الى مكتبهِ حيث يعاونهُ في بعض أشغالهِ ؛ وبالاخصّ كان يبادر الى السيدة فارس التي تبنّتهُ ويساعدها فيما تحتاج اليهِ . إلّا أن هذه الخدَم القليلة لم تكن ترضيهِ ، لانّ قلبهُ المفعم بالجميل كان يتحسّر لعجزه عن القيام ببعض ما يجب عليهِ .

وكان مراراً يقول للسيدة فارس : «أودُّ من صميم قلبي أن أجعلكِ سعيدةً يا أمي ، ولكن لا أعرف كيف ؟»

فتقول لهُ هذه : «إنه من أسهل الامور فما عليكَ الّا أن تجتهد في دروسك وتكون عاقلاً وديعاً ومخلصاً للجميع .»

كان الولدُ محبّاً للاخلاص ، فكثيراً ما قال في نفسه : «اذا كنتُ غير مخلص فأنا وحشيٌّ ! أأجرؤ ان اتكاسل وأُحزن امرأة سهرت عليَّ وتعهدتني بحنوٍ وشفقة ؟ . . . آه ! إنني لساعٍ الى إرضائها والنزول عند رغباتها ؛ ولكن هذا

لا شك ابداً بأن هذه نفسية شريفة

لا يكفي، فيجب أن أُسعدها! أجل، ولكن ما السبيل الى ذلك؟»

مشكل تنحطُّ عن حلِهِ عقليّة ولد لم يتجاوز الثانية عشرة من سنيه! ولم تسمح لهُ تربيته الاوّلية بأن يدرك دقائق القلب!

بقي فريد المسكين يبحث عن حلّ لهذه المسألة ضارباً أخماساً بأسداس وقد تراءت لهُ حالة فارس كما هي وأخذ يجتهد في معرفة ما يُشقي هذه العائلة لعلَّهُ يتوصل الى تخفيفه، ولكنَّه لم يكتشف شيئاً لان عائلة فارس كانت طلقة الوجه ذات سيماء تدلّ على سعادة ورغد. فالصغيرة الزرقاء، وأخواها الصغيران كانوا يتمتعون بهناءٍ لا يلامسهُ كدر، وكان والداهم يشتغلان بدون سأم ويتوقعان نجاحاً فوق نجاحهما.

لبث فريد يراعي حلماً مستحيلاً!

يجب على من يودّ أن يسبّب سعادة لمن يحبّ أن يكون كبيراً قادراً على ذلك؛ فغداً عندما يصبح الفتى موظفاً في الشركة ويتّسع لهُ أن يُنتج مالاً من عرق جبينه يرى نفسه قادراً أن يساعد فارس ويرفع الهدايا الثمينة الى التي تبنّته والى اولادها الثلاثة الاحداث...

في المساء، كانت افكار مزعجة تتناوب فريداً في فراشه؛ فيتراءى لهُ بعيداً ذلك اليوم الذي بهِ يرى نفسهُ رجلاً قادراً على العمل والانتاج ويخيّل اليهِ أنهُ سيموت قبل بلوغ مقصده، قبل أن يفي بعض ما عليه من الدين، قبل أن يتمكن من إظهار شواعره المختبئة في أقصى خفايا نفسه للذين تبنّوهُ وعطفوا عليه. إنّ الأحداث السريعي التأثر يشعرون دائماً بمثل هذه الكآبة لأنهم ضعفاء لا يستطيعون؛ لأن غبطة العمل محظّرة عليهم؛ لأنّ لهم أماني كبيرة لا يقدرون على تحقيقها!

ذات أحدٍ من أيام الشتاء كانت السيدة فارس عائدةً من القداس الى منزلها وبالقرب منها وحيدتها الزرقاء، فسألتها هذه:

– لماذا والدي لا يأتي معنا الى الكنيسة كلَّ احدٍ يا أمّ ؟ فالكاهن قال إنَّ من الخطايا الكبيرة أن يُخطئَ الانسان حضور القداس يوم الاحد…

فاصفرّت السيدة فارس وأجابت ابنتها :

– ذلك لأن عمله لا يسمح له يا عزيزتي، فالقطارات يجب ان تسير دائماً.. إنَّ الله لا يأخذ عليه تغيُّبهُ هذا، ولكن يجب علينا ان نصلّي لأجله في كل حين… لأجلهِ ولأجلنا ايضاً…

فهزّت الفتاة الصغيرة رأسها وقالت :

– إنَّ الرجال قليلاً ما يذهبون الى الكنائس ؛ ولقد سمعتُ والدي يقول إن الكنيسة بنيت للنساء والاولاد .

فقالت السيّدة فارس :

– ولكنَّ السيد راغب لا يُخطئ مطلقاً القداس .

– آه ! ذلك لأنه الرئيس !…

– بدون شك، فالرئيس يعطي المثل الصالح، وأؤكد لك ان نجيباً لولا اضطراره للبقاء في مكتبه لما تردّد فترةً عن الذهاب .

***

بعد أيام قلائل، في حين كان كاهن جونية يُعدُّ ملائكة الخورس ليحتفل بعيد الميلاد، قال فريد لمتبنّيته :

– أيودّ ابي فارس ان يحضر معنا قداس منتصف الليل ؟ سيكون حرّاً في تلك الساعة، فلقد عرفت ان السيد نجيباً وعد الأب يوحنا بانشاد « نشيد ميلاد للموسيقي آدم » .

— لقد آثر والدك فارس ان يبقى هنا لحراسة الصغار.

ثمَّ اشاحت عنه بوجهها مخافة ان يحزر معنى الحزن المرتسم على جبينها. امّا هو فقد تشجّع فجأةً وسأل بصوتٍ خافت:

— أيقوم والدي فارس بواجبات الفصح؟

فلمّا سمعت هذا الكلام أجهشت بالبكاء، ثمَّ نهض فريد والقى على المنضدة كتبه ودفاتره وقال:

— لماذا انت كثيرة الشجون يا أُميمتي العزيزة؟

كانت السيدة فارس قد جلست على مقعدٍ امــام الموقد فذهبت أشعّة المصباح الصغير شعورها الكستنائيَّة وطفت على قطرات الدموع المتساقطة من مقلتيها. فردّد فريد كلماتِهِ قائلًا:

— ما هذه الشجون! كنت إخالك سعيدة قبل الآن!...

فحاولت أن تُهدّئ روعها فقالت:

— أنا سعيدة يا فريد، ففارس هو من خيرة الرجال... ولكنَّهُ لم يحظ بتربية مسيحيّة كتربيتي أنا! فهو قليل الايمان! ألا ترى يا فريد أن من يحبُّ الله كما أحبّه ولهُ عزيزٌ لم يدخل الله في حياتِهِ يشعر بأنهُ لا يستطيع عن الحزن سبيلًا؟...

— إن والدي فارس لا يذكر الله في حديثِهِ ولكن لا يتراءى لي أنهُ يمقتهُ؛ فهو لم يهزأ مرة بسيدة لورد كالسيد بطرس؛ ولقد أبصرتهُ مراراً عديدة يلقّن صغيريهِ صلاة المساء. ثم إني تلوت عليه يومــاً امثولتي في التعليم المسيحي وبعد ان انتهيت اخذ الكتاب من يدي وجعل يقلّب صفحــاتِهِ بسرور ظهر على وجهِهِ...

فاجابت العاملة التقيَّة:

— آه! إنني واثقة بأنه ليس بعيدًا عن الايمان؛ فلقد رأيته يوم كنَّا في

لورد يتفطّر عند رؤيته الاحتفالات الدينية وتطواف القربان الاقدس وسماعه صلوات السيّاح حول برك الماء العجائبيَّة. أجل فتلك الرحلة أبقت في نفسه أثراً لا يُمحى. ولكنّ الجرائد التي يقرأها ورفاقه الاغبياء واللغوَ الذي يسمعه دائماً كلُّ ذلك يثنيه عن معتقده. لقد طالما عزمتُ أن أردّه الى الدين القويم فكنتُ أرجئُ ذلك الى عهد الشيخوخة عندما نصبح في عزلتنا... ولكن، هل يتمُّ لنا ذلك؟

ثمَّ نهضت عن مقعدها فمسحت دموعها المتساقطة على خدّيها وقد خجلت من استسلامها للضعف. أمّا فريد فعاد الى كتابة فرضه وقلبه ينبض بشدّة في صدره وهو يتوق الى ساعة وحدة يتّفق له فيها أن يفكِّر في إيجاد حلّ لهذا المشكل؛ وكان يقول في نفسه: «هذا هو العمل الذي أبحث عنه... العمل الذي أحلم به... يجب أن أتمكّن من دفع والدي فارس الى القيام بواجبات الفصح هذه السنة.»

كان فريد شديد الذكاء حافظاً هذه الآية من الانجيل التي تقول: «إقرعوا يُفتح لكم.» فعزم أن يعمل بها بكلّ ما أُوتيه من الجرأة وقد وثق من استجابة الله طلبه لأن المسيح يقول: «دعوا الاولاد يأتون اليّ!»

— أمن الممكن أن يرفض الله سؤالي؟ أيقدر أن لا يشفق على يتيم يودُّ أن يبرهن لمن أحسن اليه عن اعترافه بالجميل؟ لا أملك مالاً أبذله في سبيلهم ولا قوى، ولكني أستطيع أن انال أعجوبة من الله تهب أُمي التي تبنتني غبطةً لا غبطة بعدها... ربِّ! إنني مستعدٌّ للقيام بما ترغب فيه، ولكن هبني ما أتمنّى! هبني هذه الأعجوبة.

كتم فريد هذا الحلم عن الجميع، إلاّ أنَّ كاهن جونية تعجّب من تُقاه وورعه حتى إنهُ نسب اليه حياة القديسين الذين كثيراً ما قرأ سيرهم في الكتب المقدسة فاتسع نطاق أفكارهِ وانفتحت في نفسهِ ابوابُ العالم الخفي.

آه! يا لها من مشهدٍ مؤثرٍ رؤية هذا اليتيم ساجدًا على اقدام سريره طيلة ليالي الشتاء في حين يكون قد هجع كلُّ من في المنزل وأُطفئت المصابيح وتنوسيت أتعاب النهار في الراحة والأحلام.

يا لعذوبة النفس الساهرة في هدأة الليل! يا لحلاوة الصوت المتصاعد الى السماء من ذلك البيت الساكن! يا لجمال الروح المحلقة في مذاهب اللانهاية تستعرض مواكب الملائكة والأنبياء وسكان الجنة السعداء!

أيّ مشهدٍ أشدُّ تأثيرًا من رؤية ولدٍ في الثانية عشرة من سنيه يضرع الى الله بكلّ ما في نفسه من الحرارة والتقوى؟ أيةُ رؤيا أعذب من رؤيا روح طاهرة نقيّة لامستها الاحزان وطفت عليها الاوجاع؟! إنَّ الله الذي يصلبُ أمام الملوك والسلاطين لا يتردَّد أن يعطف أذنه نحو هؤلاء البائسين!

ومضى كانون الثاني وعقبه شباط بدون أن يجد الولد سبيلًا لبلوغ أربه. لم تجرؤ السيدة فارس أن تحدِث زوجها فيما يتعلّق بالدين فكيف يتّسع ذلك لفريد اليتيم؟

جاء الصوم الكبير وزحف فجرُ الربيع على روابي لبنان، فقال الولدُ في نفسِه: «يجب أن أسرع!» ثمّ أخذ يبحث عن مولجٍ يدخل منه الى السبب حتى مهّدت له ذلك صورةٌ أخذها من الكاهن يوحنا.

كانت هذه الصورة تمثّل قطارًا كثيف الدخان ينحدر الى فوهةٍ من جبل تخلّلتهُ صلبان وقبور: رمز السفر العظيم الى ما وراء العالم حيث لا يبلغون مطارح الانوار إلّا بعد اجتيازهم ممرّ الموت الرهيب! وكان في ذيل الرسم آياتٌ تفسّر رموزه، مفادها أن على الانسان الذي هو مسافرٌ في هذه الحياة أن يصعدَ الى المركبة التي تؤدّي الى الجنة ويتّجه الى الطرق القصيرة التي تنعطف عن المخاطر والدواهي.

ففي يوم أحدٍ ممطر كان فارس مستريحًا في بيته بالقرب من أبنائهِ الاحداث

وامرأته المهتمة برتق ثياب السيدة اديب فعزم فريد أن يدفع والده المتبنّى الى قراءة كتاب يخصّهُ فقال له :

—أتودُّ أن أعطيك « الابطال المردة » لتقرأه وهو الكتاب الذي جوزيت بهِ في المدرسة والذي راق لك منذ أيام ؟

فقال فارس :

— هاتِهِ ! فالنهار شديد الامطار والقصص تسلّي في مثل هذه الساعة .

فجاءه الولد بالكتاب فانفتح من نفسهِ بين يدي فـارس حيث وضع فريد صورة الاب يوحنّا . فقال فارس :

— من الذي أعطاك هذه الصورة يا فريد ؟

ثم أخذ يقلّبها بين أناملهِ الضخمة السمراء وعيناه تتبعان بدون قصد منها سطور الآيات المزيّلة .

عند هذا أحاط الاولاد بأبيهم وقالوا له :

— أصورةٌ هذه ؟ . . . أرنا إيّاها .

أمّا الصغيرة الزرقاء فدهشت ممّا رسم عليها فقالت :

— هذا قطار هائل يغور في فوهـة جبل ، ولكن لماذا هذه القبور فوق الفوهة ؟

فقال فريد :

— لان وراء الجبـل الجنة ، ولأنهُ يجب على الانسان أن يمرّ من ثقبِ الموت الاسود لينتهي الى السماء .

ففكّرت الفتاة هنيهةً ثم قالت :

— أو يذهبون في القطار الى السماء ؟

فأجابها فريد :

— أجل ، ولكنْ منهم من يصلُ بسرعة ومنهم من يتأخر في طريقهِ على

حسب القطار الذي يركبونه. فالقطارات ثلاثة منها سريع ومنها وسط ومنها بطيء. وإنَّ من الناس من يلهون بأموالهم وخيراتهم فلا يذهبون الى السماء إلّا في قطار البضائع! أمّا أنا فأنتظر أن أقوم بهذه الرحلة في قطار سريع.

ثمَّ التفت الى فارس وقال: «وأنت يا والدي في أيها تودّ الذهاب؟

فأجابهُ العاملُ بصوت يتكلّف الكلام: «في القطار السريع (طبعاً)»!

فسأل أحدُ الاحداث قائلاً:

— وهل يستطيعون الذهاب الى السماء في الدرجة الأولى؟

فقالت الصغيرة الزرقاء:

— نعم، ولكنَّ المسيح الذي مات على الصليب يؤثر الذين يسافرون في الدرجة الثالثة على سواهم!...

كان الاولاد يصرخون ويهتفون حول الصورة الصغيرة المضطربة بين أنامل والدهم فارس.

وفجأة قال بطرس الصغير بعد أن فكّر هنيهةً واضعاً ابهامه في فمه:

— ولكن الذين يذهبون الى الجحيم او الى المطهر أفيسافرون في القطار أيضاً؟

فجمدت الفتاة الزرقاء وقد ملكتها الحيرة.

فقال فريد:

— أجل، إنهم يركبون قطاراً لا اوراق له وعندما يقوم القديس بطرس بدورة التفتيش يدفعهم الى أيدي الابالسة الاشرار.

لاحظ فريد أنَّ أمارات الزهو قد احتجبت عن وجه فارس وحلّت محلّها أمارات العبوس والحزن فقال في نفسه:

– ربما تكون الصورة قد أثرت في نفسه ! ربٍّ ، اذا كنت قد رميت في صدره بذور أفكار صالحة فدعها تنمو و تُزهر !

***

إنتهى الصوم وجاء أحد الشعانين فأنشد نجيب تسابيح القداس الاحتفالي في كنيسة جونية و كان قد أصبح منذ ايام قلائل صديقاً حميماً للأب يوحنا لانَّ الموسيقى والقصائد الطيّبة وذكريات الجنـدية كانت قد جمعتها بخيوط متينة من الحب .

ففي مساء هـذا الأحد بينما كان مستأجرو اديب مجتمعين تحت شجرة الطلح دفع عزيز نجيباً الى التحدُّث عن الدين ؛ وفي حين كان هذا يتكلم بما أوحت اليه عاطفة إيمانه كانت النساء صامتـات يصغين الى كلامه إلا السيدة بطرس فانها صرّحت بانَّ في احتفالات التعبّد ينبوعاً من الشعر الصحيح طافحاً بمياهٍ عذبة .

أما اديب الذي كان شديد التمسُّك بالاحاديث القديمة فقد صرَّح بانَّ في نيَّتِه ان يقوم بواجباتِهِ في الفصح لكي يحافظ على العـادات التي تمشّى عليها جدُّه ووالده . وأمـا عزيز فقد كان مؤمناً . فلم يبقَ الا بطرس الذي لم يقف عن خطبه اللادينية بالرغم من تأفف نجيب فقال ساخراً :

–انك مندفع عن جهل يا صديقي نجيب فانظر الى أين اوصلتك معاشرة الرهبان . اتودّ ان تتمم واجباتك الدينية في الفصح القريب ؟

فأجاب الجندي القديم مجمجماً :

ولِمَ لا ؟ معاذ الله ان اخجل بهذا الواجب ! اما أنت يا بطرس ، أنت الذي

ربيتَ في كنف الدين المسيحي والذي تُنكر مباديك الأولية، فيجب عليك ان تخجل بجحودك الذي لا معنى له...

— لا معنى له؟ أصمت يا نجيب فلقد جننت! إنّ من يكون رجلاً عائشاً في القرن العشرين لا يجد مندوحة من فتح عينيه ليتأكد أنّ الله والدين والكنيسة ليسوا إلّا أشياء ميتة او خرافات باطلة.

— أمّا انا فعندما أفتح عينيّ أرى نفساً من أنفاس التجدُّد يحرّك العالم ويوقظ الحميّة في صدور الشباب...

— لا بل في صدور المغرورين الذين استولى عليهم خداعُ بعض الرهبان!

— إنني لا أتكلّم فقط عن الأحداث بل عن شبّان هذا العصر، عن رجال هم أترابك أنت. أتجهل يا بطرس أنّ في لبنان اليوم الوفاً من العملة يتمسكون بعبادتهم الدينيّة ويجاهرون بها في المجتمعات والمجالس؟ أجل يا صديقي، فسينمو عددنا بالرغم منك ونؤلف في جونية جمعيّة كبرى نعطيها اسم «جمعيّة عمّال السكة الكاثوليكية»! هل اتضح لك أن الايمان لم يمت بل هو هاجع في الصدور؟ وأنه لا يحتاج إلّا الى رحمة الله ليستيقظ ويهبّ؟

أجل يا رفاقي، إنني لا أعرف الذي تهبهُ لنا قلّة الايمان ولكنني أعرف حقّ المعرفة ماذا تُضمر لنا مواظبة الدين، فلهذا السبب ترونني مستعداً لان أتمم واجباتي في هذا الفصح إذ إنني أحترم الرجل الذي يقرن أعماله بمعتقداتهِ.

عند هذا كان فريد قد اقترب من المتحدّثين فاستغرب عندما رأى فارس يحيط نجيباً بنظرات ملؤها الاعجاب، فقال في نفسهِ:

— أتراه قد تحرّك لدى هذا المثل؟

ولكنَّ الاسبوع المقدّس كان قد فات بدون أن يبدو من فارس ما كان يشغل بال فريد ؛ فقال الولد في نفسهِ :

— لا ، سوف لا يُستجاب طلبي ! . . . ذلك لانني لم أضرع الى الله كما يجب ان اضرع . . . كان الاحرى بي ان اتوسل اليه اكثر مما توسلت !

صرف فريد الليالي التي تقدمت العيد في الصلاة والتضرع بالقرب من سريره . ففي ذات ليلة دخلت اليهِ السيدة فارس بعد ان صرفت قسماً من الليل في إنجاز عملها فدهشت إذ أبصرت شعاعاً من النور أمام الباب ، فحدّقت في الغرفة فرأتهُ ساجدًا على الارض ويداه ملتصقتان بسبحةٍ صغيرة ورأسهُ مستلقٍ على حافة السرير وقد نام نوماً عميقاً .

قضى فريد معظم نهار السبت المقدّس قلقَ البال مشتَّت الافكار ، فاذا جلس الى الطعام جلس كئيباً شاحباً ، وإذا تمشّى في الحديقة الصغرى تمشّى صامتاً مفكرًا ! ذلك لان الساعة التي يرغب فيها قد حانت ولم يبلغ لبانته . وفي المساء قالت لهُ السيدة فارس وهي تسكب الحساء :

— يجب أن تسرع في تناول الطعام يا فريد وتتبع نجيباً وأديباً وعزيزًا الى جونية حيث يودّون أن يعترفوا بخطاياهم .

قالت ذلك في حين كان أولادها يأكلون الى جنب والدهم الصامت !

فنهض فريد بعد هنيهةٍ ونظر الى فارس نظرةً طويلة وقال في نفسهِ : « لقد حبطت مساعيَّ وتلاشت أحلامي الجميلة ! » ولكنهُ تشجّع وقال في نفسهِ : لا يجب أن أخنق في صدري ما يختلج فيهِ فلأُجاهر بهِ عالياً ! » ثم التفت الى فارس بعيونٍ طافحة بالعبرات وقال لهُ :

— إذن فلم يبقَ سواك والسيد بطرس راغبين عن تتميم واجبكما في هذا الفصح ، ياوالدي العزيز ؟

فدهشت السيدة فارس من جرأة فريد ومن دموعه السخينة فنظرت الى

زوجها بحزن وكآبة. أما فارس فانتصب على قدميهِ في وسط الغرفة وقال بصوتٍ يختنق: «مَن قال لك أنني أرغب عن تتميم واجبات فصحي؟ لا بل إنني مصمّم نيّتي، وسأعترف كسائر رفاقي... فتعالوا جميعكم وعانقوني.»

فانطرحت زوجته بين ذراعيهِ وقد ملكتها هزّة فرح وغبطة ليست من هذه الحياة. فكان فريد ينظر اليهما معانقاً كلٌّ منهما الآخر، وقد أيقن أنَّ الله حباه تلك النعمة العظيمة التي أدبَّت التعزية في قلب متبليتهِ فترك شفتيه تتمتمان بهذه الكلمات: «شكراً لك يا الله! شكراً لك!»

عند هذا خُيِّل الى فريد أنهُ يلامس بيده قوّة الصلاة المضطرمة الثابتة، تلك القوّة التي لن تقهر والتي بيدها مفاتيح السماء.

همست الزوجة السعيدة في مسمع زوجها هذه الكلمات: آه يا فارس! إنَّ حلم حياتي قد تحقّق! فسنكون من الآن فصاعداً روحين في جسد وقلبين في صدر!»

فبكى فارس كولد صغير. اما الاولاد الاحداث فكانوا ينظرون الى هذا المشهد الملآن عاطفة بدون ان يفهموا معناه ولكنهم شعروا بانه ساعة فرح وعذوبة فاقتربوا من والديهم كتلةً واحدة وبسطوا اذرعهم الصغيرة وشفاههم الورديّة كأنهم يستمنحون القبل.

فقال فريد ثانيةً: «شكراً لك يا الله!»

لم يعرف عبارةً غير هذه يحمد بها الله، لأن الفرح والسرور كانا يتدفّقان من عينيهِ كينبوع لا يعرف النضوب.

الفصل الثاني

١

صرخ رئيس المحطّة المنتصب على حافة الرصيف دافعاً المسافرين بطرف علَمِه الاحمر قائلاً :

« إنتبهوا ! إحذروا القطار ! »

كان قطار بيروت على وشك الوصول الى المحطّة .

عند هذا كان قرويّ ذو لحية شهباء وجثّة كجثة الجبابرة يريد المرور من بين الخطّين الى الرصيف المقابل فلم يسمع أوامر الرئيس ؛

فقال لهُ هذا :

— يُحظَر عليك المرور يا هذا فالقطار قادم !

فلم يكترث الرجل لأنه كان أصمّ فنزل بهدوء عن الرصيف ووضع قدماً على الخطّ فاسرع اليه السيّد راغب وأخذه بين ذراعيه، إلّا أنّ القرويّ كان أشدّ من الرئيس فعانده ُ بحماقة وسعى الى التخلّص منه .

دامت المعركة زهاء دقيقتين بين القرويّ والرئيس حتى أسفرت النتيجة عن انتصار هذا لأنّ قواهُ كانت قد تضاعفت أمام الخطر الداهم فتمكن من الرجل فحمله وألقاهُ على الرصيف ثمّ وثب خلفه كالحَ الوجه مضطرب الأعضاء !

إذ ذاك أدرك القروي الخطر الذي كاد يقع فيه فقـال بصوت تخللته الدموع : «لقد أنقذتني ! كنتُ على وشك الموت . لم أسمع شيئاً . إني أصم ! . . . آه ! مـا الذي كان قد حـل بأولادي ؟ عندي ثـلاثة أولاد لا يزالون أحداثاً ! . . .»

فغضب الرئيس وقال له بصوتٍ ملوءه التأنيب :

— يا لك من بهيمة !

ثمّ أبعد الرجل باشارة غليظة لكيلا يتفطر من مشهده .

ولكنّ المسافرين أخذوا يثنون على شجاعة السيّد راغب وكان بينهم نائب الادارة يحيط بهِ عددٌ من الناس فجعل يتكلّم عن بطولة الرئيس الى أن قال له :

— لقد عرّضت حياتك لخطر عظيم يا سيّد راغب ، فغداً تذكر الجرائـد عملك باعجاب وثناء ، وأودُّ أن امنحك وساماً تستحقُّه ! . . . فلم يأبه الرئيس لهذه المنحة وقال :

— إنني لم أفعل إلّا واجباً محتماً عليّ ، ولطالما أنقذتُ غيرهُ من الرجال !

فتحوّل النائب الى فتىً لابس قبعةً تزينها قددٌ حمراء يهتمّ بأخذ الاوراق من المسافرين وقال له :

— وأنت يا عزيزي ، ألا ترى أن عمل رئيسك يستحقُّ وساماً ؟ أتظنُّ أنهُ من الواجب أن يعرّض الانسان نفسه في سبيل مسافر ؟ . . .

فنظر الفتى الى النائب نظرة دهش واستغراب وقال :

— إن من كان موظفاً في السكّة الحديديّة يتعوّد اللعب بالأخطار !

— مرحى ! مرحى ! إن محطّة جونية هـذه لمدرسةٌ تعلّم البطولة ! فأنا أعرف رئيسك السيد راغبـاً من عهدٍ طويل فهو مثال الموظّفين ولا بدّ لي من منحه وسام الاستحقاق . ولكن أنت أيضاً لي مدّة غير قصيرة أراك فيها

عند مروري من هناك ؛ فكم لك من العمر ؟

— ثماني عشرة سنة ! فأنا موظّف في جونية ولي ثلاث سنوات في وظيفتي . ما كدت أبلغ الرابعة عشرة من سنيّ حتى سمح لي هؤلاء المفضلون بأن أتذوّق مصاعب الخدمة في مكاتبهم العديدة .

— إذن فمتى تتعلّم المتاجرة بالبضائع ؟

— بعد خدمتي في الجنديّة .

— إنهُ لوقت بعيد ! فاذا احتجت اليَّ يوماً . . . ما هو اسمك ؟

— سالم ، ولكنَّ الجميع هنا يدعونني فريداً .

توصّل فريـد اليتيم الى تحقيق حلمه فدخل في السكّة الحديديّة بعد أن تبنّتهُ السيدة فارس منذ ست سنواتٍ خلت ؛ فكان شديد الانتباه الى وظيفته محبوباً من رؤسائهِ الذين لم يألوا جهداً في تشجيعهِ ودفعهِ الى المثابرة في عملهِ ليذهب في مذاهب التقدم والفلاح .

لم يكن فريد طمّاعاً ، فرتبه الصغير كان يكفيهِ لسدّ حاجته ؛ وكان بعيداً عن الاهتمام بالمال والمجد . إلّا أنهُ كان يضمر في قلبهِ حزناً عميقاً أدبّ السّم في حياتهِ

بقي الفتى وهو في الثامنة عشرة من عمره سقيم البنية ، مجعّدَ ملامح الوجهِ ، ذا خلقةٍ بشعة غريبة الشكل لا يتمالك الناظر اليها من الضحك .

كان فريـد كريه المنظر إلّا أنهُ كان يحبُّ الفتـاة ابنة أديب . وكيف لا يحبّها ؟ ألم ينشأا معاً تحت سقفٍ واحد ؟ ألم يلعبا جنباً الى جنب طيلة أيام الحداثة ؟

عندمـا بلغ الفتى الرابعة عشرة وترك المدرسة لينخرط في سلك الموظّفين كانت ابنة اديب في الثالثة عشرة من عمرها ، وكان جمالها قد برز بأبهى ما بهِ وارتسمت عليه أمارات الزهو والسرور .

كان للفتاة صوت جميل يملأ منزل العملة بعذوبتهِ المسكرة وكانت تتغنّى بهِ طيلة ساعات النهار ؛ وعندما بلغت الخامسة عشرة وبرزت ذات صباح بثوبها الطويل وشعورها السوداء كانت كأنها ملاكٌ من ملائك الجنان .

شعر القرويّون الفتيان أنهم ينقادون بفطرتهم الساذجة الى تعشقها والميل اليها وفيهم الغنيُّ والجميـل ؛ ولكنَّ والدها كان يجيبهم بالسلب على طلبهم يدها مدّعياً أنها لا تزال صغيرة .

كانت أحلام الوالد بابنتهِ كبيرة وكان يهيّئ لها مهراً يتّسع لها بهِ أن تقترن بأفضل شاب في لبنان .

ففي أحد الايام قال لامرأتهِ :

— إن أراضينا لا تغـلُّ علينا ما يكفي مؤونة الحياة وما يتطلّبهُ منّا مستقبل فتاتنا ؛ فلقد خطر لي خاطرٌ عظيم وهو أن أبذر في كل مكان بذوراً مختلفة من الحمص والعدس وما شاكل ذلك وأذهب الى بيروت حيث أتفق مع كبار التجّار على أن أرسل اليهم كمّياتٍ كبيرة من هذه الاصناف فبهذه الطريقة نتوصّل الى الثروة في وقتٍ قريب .

وما عتّم أن أخرج فكرته هـذه الى حيّز العمل ، فقلب أرضهُ بمساعدة كثيرٍ من الفلّاحين ، وكان هو وامرأته يديران دفّة الاشغال ، فينهضان باكراً ويصرفان النهار كلّه في مساعدة العملة و إرشادهم وتشجيعهم ؛ حتى إذا جاء المساء اتجه الجميع الى خوانٍ مركّز على براميل أربعة تحت شجرة الطّلح فجلس اديب في الوسط وسكب الخمرة في الكؤوس .

كان معظم هؤلاء العملة من الارمن قادهم الامـل بالارباح الى سهول لبنان .

***

كل مساء، عند ما يعود فريد الى المنزل يجد الاولاد الاحداث ينتظرونهُ امام القنديل فيجلس اليهم ويشرع يفسّر لهم اسئولاتهم ويساعدهم على حلّ الارقام الحسابية. ففي ذات ليلة بينما كان الفتى يشرح كيفيّة رقم من الارقام شعرت الفتاة الزرقاء بانهُ يخطئ فقالت له:

— انك تخطئ يا فريد فما الذي يشغل فكرك؟ وبمن انت تحلم؟

كان يسمع ضحكة الفتاة ابنة اديب وصوتها العذب يتصاعدان من النافذة المجاورة! آه! انه لم يكشف لاحد سرّ حبّه الجميل! بل دفنه في اعمق اعماق صدره! ألم يكن من المضحك ان يحب وهو الفتى المسخ والفقير؟ ألم يكن من المضحك أن يُحبّ... من؟ اجمل فتاة! كان يحبها ويهرب منها خلافاً لبعض الفتيان الذين كانوا يختلفون دائماً الى منزل عملة السكة! وكان عند ما يرى لبيب راغب المتخرّج من جامعة «القديس يوسف» في بيروت، وحامل البريد الفتى الذي خلف عزيزاً في وظيفتهِ جميل هاني وغيرهم يترددون الى منزل عملة السكة، يقول في نفسه:

— هؤلاء ايضاً يفكّرون في الفتاة ويحلمون بها!

ولكن بينما اصدقاؤه يحيطون بالفتاة ويترددون اليها كان هو يمرّ امامها بدون أن يلتفت أو أن يوجه اليها كلمة، فتمتعض من تصرّفهُ هذا فتقول لهُ:

— أتمرّ بدون أن تحيي يا فريد؟ ألا تقف دقيقةً واحدة تحت الشجرة؟

فيجيبها:

– لا يتسع لي الوقت للتحدث، فالصغار ينتظرونني في المنزل لاشرح لهم أمثولاتهم.

– كان يجب عليك إذن أن تحترف حرفة التعليم! يظهر لي أنك تسرّ جداً بتحليل الارقام الحسابية والاعراب؟

واحسرتاه! لقد نسي فريد وهو مستغرق في تصحيح الاعراب أن يُعرب قلبهُ!

غير أنهُ كان شديد الفرح في تلك الليلة لانها كلَّمتهُ وبسمت له! أجل، لقد كفاه غبطةً أن تحدثهُ وتنظر اليهِ وتجمع الى تذكاراته التي يضنُّ بها إلّا على الليل هذا التذكار الجميل!

٢

كانت تلك الليلة شديدة العواصف والامطار حتى إنها حالت دون رقاد المزارعين في جونية. ولمّا كان غدٌ أبكر أديب فقطر جواده على العجلة وذهب مع امرأتهِ لزيارة أراضيهِ والوقوف على الاتلاف.

كانت الشمس تنير بأشعتها المتلألئة بين الغيوم المنهزمة طرق المجاري والاودية التي تخللتها الاوراق والاغصان المتكسرة والادواح المستأصلة من منابتها؛ وعندما اجتاز اديب بعض كيلو مترات بلغ سهولهُ الواسعة فرأى أن العواصف والسقيط قد أشفقت على مزروعاتهِ فأبقتها ولم يمسّ الهواء العاصف إلّا أسلاك الحديد حيث اتكأت رؤوس الاغراس الخضراء؛ فهتف مسروراً ورفع نظره الى الله وقال:

– أحمدك اللهم! لقد أبعدت الضرر عني وكفيتني مؤونة الخسائر! ثم

ربط جواده الى شجرة وأخذ يُعيد مع امرأتهِ أسلاك الحديد الى ما كانت عليهِ ويسندان اليها رؤوس الاغراس المنطرحة على الارض .

كان في طرف الحقـل منحدرٌ يرتفع على مقربة من السلك الحديديّ ؛ فبعد أن صرف اديب بعض الساعـات في العمل جلس على حافة المجلة ليأخذ شيئاً من الزاد فخيّل اليهِ أنهُ يرى عماداً « تلغرافياً » ملقىً على خطّ القطار ، فأسرع ليتحقّق ما رآه فتبيّن أن زوبعة الليل قد حطمت العماد الكبير فاضطرب اضطراباً شديداً ورجع الى امرأته وقال لها :

يستحيل علينا أن نرفـع ذلك الثقل الهائل عن الخطّ ؛ بيد أنَّ الخطر قريب لان القطار أصبح على وشك الوصول ، فما العمل ؟ يجب أن ننقذ القطار من الداهية ! . . .

فقالت المرأة ببسالة قليلاً ما تتفق للنساء :

— يجب أن نجد وسيلة قريبة ، يجب أن نوقف القطار . أتعرف بأية واسطة نتمكّن من إيقافهِ ؟

— بوضع علم أحمر في وسط الطريق . ولكن أين يتّفق لنا أن نجد علماً أحمر ؟

— عند هذا خطر لهُ خاطرٌ فجائي فصرخ قائلاً :

« تنورتك الصغيرة ! »

فلم يكد يتلفّظ بهاتين الكلمتين حتى سقطت التنورة الحمراء على قدميها ، فـأخذها اديب وربطها بقدر مـا استطاع الى مذراةٍ ذات أسنان مستطيلة وركض فاجتـاز الحقل حتى بلغ المنحدر فتسلّقهُ الى الخطّ حيث ركّز علمهُ الاحمر !

بعد مرور خمس دقائق ابصر سائق القطار العلامة الحمراء فاوقف الآلة تجاه حقل اديب . عند هذا شرع الزوج وامرأتهُ يقصّان على مسمع السـائق

كيفية الحادثة، فنزل احد المفتشين من القطار وبعد ان استجلى الحقيقة شكر الزوجين على صنيعهما الحميد قائلاً لهما :

لقد أنقذتما القطار من خطر عظيم أيها الباسلان ! فلولا علمكما الاحمر لما نجت مئات من الارواح ! فساطلع الشركة على جميلكما هذا »

في تلك الآونة كانت رؤوس المسافرين تطلّ من نوافذ القطار وقد ظهرت على محيّاها أمارات السرور وخرجت من أفواهها عبارات الشكر والثناء .

أما القرويّة فلم تتردّد أن نزعت قماشتها الحمراء عن أسنان المذراة ورفعت على مرأى من الجميع وهي تبتسم ابتسامة جذّابة تلك التنورة المرقّعة، تنورة القرويّة اللبنانية التي أنقذت القطار .

أقام سكّان منزل العملة حفلةً جميلة لعائلة اديب في المساء نفسه ، وبعد ثمانية أيام جاء السيد راغب الى اديب وقال له :

إن الشركة مقرّةٌ بجميلك وهي تتوسّل اليك أن تقبل منها جائزة قدرها خمسون فرنكاً . فغضب بطرس عندما شعر بزهادة المبلغ وقال :

— خمسون فرنكاً ! خمسون فرنكاً فقط لقاء تضحية كهذه ؟! إن كِفاء الشركة لكفاءٌ زهيد !

فعارضهُ اديب قائلاً :

— لم أفعل ما فعلت في سبيل المال يا سيدي المدير ؛ ولكني لا أرفض مكافأة الشركة لانها غنيّة . . . بشرط أن يُصرف هذا المبلغ في إقامة مأدبة لعمّال السكّة تتصدّرها أنت يا سيدي المدير لكي يتمّ فرحنا بك .

آه ! إن الخمسين الفرنك التي سمحتْ بها الشركة لا تكفي لدفع نفقات الوليمة ! ولكنّ عائلة اديب ، تلك العائلة المضيافة ، قلّما أمسكت كيسها عن أحد .

***

كانت الليالي عذبةً مسكرة في شهر أيار الضاحك ؛ ففي ذات ليلة مُدَّ الخـوان تحت شجرة الطلح المزهرة، فجلس رئيس المحطّة في مقدّمـة المدعوّين ؛ وكانت السيدة اديب تذهب وتجيءُ من المطبخ الى الخوان فتحثُّ النساء على الاكل وتملأ القناني الفارغة أو تسكب الطعام في الصحون في حين يكون الدسم يُنشد في المقلاة فوق نار مضطرمة .

عند هذا كانت روائح أردية شفافة معطّرة بعطر قديم تفوح من النساء وتمتزج بأشذاء العناقيد المتدلّية من شجرة الطلح أو بأريج الاوراق الذابلة على خصر الفتاة ابنة اديب

أما النساء فكنَّ مرتديات أجمل ثيابهنَّ في تلك السهرة، حيث برزت السيدة فارس بردائها البسيط وشعورها الكستنائية كأنها تسترجع عهد شبابها القديم .

والسيدة بطرس بثوب العُرس الاسود وقد رثَّ وتخرّق فجُمعَت اطرافهُ المخرّقة بدبابيس وغُطّيت بأقمشة مزركشة .

وكانت عائلة عزيز من المدعوين الى تلك الحفلة العائلية فجاءت من جونية حيث كانت قد استوطنت وابتاعت بيتاً صغيراً تحيط بهِ الجنائن والكروم . لا تسل عن فرحها برؤية العملة بعد غيبةٍ طويلة فأخذت تحدثهم عن مزروعاتها ومواشيها الصغيرة وأولادها الذين وطّدوا دعائم مستقبلهم .

أمّا نجيب فكان يتحدّث الى الرئيس في حـين كان بطرس ذو المزاج السوداويّ يسخر من ثوب امرأتهِ الجميل، ذلك الثوب الموثقة أطرافُ خرقهِ بالدبابيس .

وفي طرف الخوان كان الفتيان يضحكون بملء أشداقهم، بينهم ابنة اديب التي كانت تلحّ على جميل الموظّف الجديد في الشركة وتجتهد في استمالة أبصار فريد .

وعندما أوشكت الوليمة أن تنتهي أخذ البعض يتناشدون الاشعار ثم نهضوا للرقص، فأبعدوا المناضد الى ناحية من الفسحة واصطفّ العُجّز على قدم الجدار ليفسحوا مجالاً للراقصين .

دارت حلقة الرقص بين القرويّين والقرويّات فجلست السيدة فارس والسيدة اديب في الظلمة وأخذتا تنشدان بصوتٍ بطيء أغاني « دبكة » يعرفها الجميع في القرية في حين كان العاملات ينحنين على عتبة المطبخ ليتفرّجن على الرقص بدون أن يتوقّفنَ عن غسل الصحون وتنشيفها .

في تلك الآونة كان القمر هلالاً ينفذ أشعّته الفضية من بين الأغصان فتطفو على الساقية ذات المياه الرقراقة وتميزها لمعان الزجاج عندما تنعكس عليه أشعّة الشمس .

لم يكن فريد يحسن الرقص فكان جالساً على قدم الجدار مع العجّز ينظر الى ابنة اديب تدور الى ذراع جميل هاني كأنها خيالٌ أبيض يطفو على ظلمة الليل ؛ وكان يتبع بنظراته حركاتها الخفيفة العذبة وقد جُمعت اليها مهابةُ السماء وأسرار القمر فأكسبتها ملامح جنّية ذات جواذب شعرية غميضة، فتمنّى لو أُتيح له أن يصرف الليل كلّهُ في النظر الى تينك القدمين اللتين تلامسان الارض بخفّة الطائر . حتى اذا انتهت الفتاة من الرقص تحوّلت الى فريد وقالت له بغنج :

— ألا تودّ أن ترقص يا فريد ؟

— لم أتعلّم الرقص .

— تعال معي أعلمك إياه بسهولة .

– لا، أخاف أن يضحكوا مني.

– إني ألومك يا فريد، فالرقص جميل!... ولا يجمل بك أن تبقى الى جانب هؤلاء العجز بينما الجميع يرقصون...

– لا، ليس من المحزن أن أبقى على ما أنا!...

– أنت دون الثامنة عشرة يا فريد والذي ينظر اليك يظنك في الاربعين ثمَّ إني لا أعرف ما يروق لك، ولقد تبيَّن لي أنك تكره كلَّ ما يلذ لغيرك.

– ومن قال لكِ ذلك ؟...

– إذن فأنت تُحبُّ الزهوَ والشمس والأزهار ؟

– كثيراً!

– إذا كان ذلك فأودّ أن أسرّك وأنوّر افكارك.

قالت ذلك ونزعت الأزهار من خصرها وألقتها بين يديه وهي تنشد أغنية جميلة، فتشنجت أصابع الولد المضطربة على الأزهار الملساء التي كانت على وشك الذبول؛ ثمَّ انتصب على قدميه وقد خيِّل اليه أنهُ يسمع أصوات شبابه تصرخ في حنايا نفسه. وفجأةً ضمَّ الازهار الى صدره وانسلَّ بعيداً عن العملة حتى دخل غرفته الصغيرة ليجلس وحيداً مع افكاره!

في تلك الدقيقة كان القمر يملأ باشعَّتهِ الزرقاء الطافحة بالاحلام تلكَ الغرفة الضيقة، فجلس الولد على حافة السرير وفي يده الازهار العطرة واخذ يتسمَّع الى نداء عذب يتصاعد من قلبه.

كان ذلك النداء اصوات السعادة!

ثم استسلم للبكاء فتناثرت الدموع على الازهار العطرة فقال:

– ربِّ، أهذا هو الحب؟

٣

كانت السيدة بطرس مستلقية على كرسي من قش تقصُ على مسامع جاراتها رواية غرامية قرأتها في جريدة « البرق » حتى اذا وصلت الى هذا المقطع : « شعر المركيز الشاب بأنَّ فخاً سرّياً قد انفتح تحت قدميه فسقط في هوّة عميقة . . . » قاطعها جميل هاني بقولهِ :

— عن أيِّ مركيز تتكلمين يا سيدتي ؟

— عن الذي قرأتُ حوادثه في « البرق » .

— آه ! كنتُ أظنك تقصّين حكايةً حقيقيّة ! . . .

— فرفعت السيدة بطرس نظراتٍ ملؤها الشاعريّة الى نجوم الليل وقالت :

— إنَّ القصص الحقيقيّة لا تلذُّ كغيرها من القصص الخياليّة يا سيّد هاني ولكنْ اصمتْ ! . . . فانا أقول ذلك بصوتٍ خافت لأن زوجي لا يزالُ يعتقد انني أمرأةٌ خياليّة .

فقال نجيب :

— إنَّ زوجك غائبٌ الآن !

— ما الذي اضطرّه الى البقاء في المحطَّة حتى هذه الساعة المتأخرة ؟

فأكّد لها جميل هاني بقوله :

— ليس زوجك في المحطَّة ، فلقد مررت بمكتبهِ منذ هنيهةٍ فلم أجد أحداً . فنهضت السيدة بطرس قلقة البال وقالت :

— إذن فأين هو ؟ إنني لم أرَه منذ الظهر ! ولكن لا بأس ، بشرط أن

لا يكون مريضاً ! وعلى كلٍّ فأنا ذاهبة الى المحطة لاعرف سبب تأخره !

فقالت النساء بصوتٍ واحد :

— إنّا نتبعك !

أمّا نجيب فاستلقى على ظهره من الضحك وقال :

— أنتِ لا تجهلين أن زوجك يحبُّ رفع الكأس من وقتٍ الى آخر، فهو بدون شكّ في خمّارة يوسف.

فقالت السيدة اديب باحتقار :

— في خمّارة يوسف ؟! أوَ يجوز لموظف في الشركة أن يتمرّغ بين الرعاة وسوّاقي العجلات في خمّارة يوسف ؟

فقال جميل :

— ربّما ذهب الى جونية بدون أن يخبر أحداً من أصدقائهِ ، فأنا لا أذكر أني أبصرتهُ في القطار الاخير ، ولا ريب أنهُ ذهب في عجلة البريد بعد القطار.

عند هذا أسرع الرجال للاستطلاع فقيل لهم إن بطرس ليس في المحطة ولا في الخمّارة ، فلم يترددوا أن بدأوا يبحثون عنهُ على طرق الاسلاك الحديديّة حيث تكثر الاخطار وتتوالى الحوادث ؛ فتمتم فريد في مسمع نجيب قائلاً :

— إن شبهاً غريباً تبيّنتهُ بين بطرس وبين مسافر ركب هذا المساء قطار باريس . والحق أقول لك إنهُ لو لم يكن هذا المسافر مرتدياً برنساً رمادياً وقبعة من قشّ لما استطعت أن أفرق بينهُ وبين بطرس.

— إنّ ما تقولهُ يا عزيزي لفظيعٌ ، فلا تردّده على مسمع أحدٍ من الرفاق، وتعال معي نطلع السيد راغب على ذلك.

فعندما سمع الرئيس ملاحظة فريد قطب حاجبيهِ وقال :

— إنَّ هؤلاء الرجال لخطر عظيم على الانسانية فهم يلقون بذور الثورة في كل مكان .

ثمَّ دخل الثلاثة الى مكتب بطرس فرأوا قبعته وسترته ذات الازرار الصفراء مطروحتين بدون ترتيب تحت المنضدة .

فتساءل السيد راغب قائلًا :

— لماذا يا ترى طرح الى الأرض ثياب مأموريته ؟

ثمَّ أسرع الى الدفـاتر فالصندوق فرآه فارغاً فضرب المكتب بقبضتهِ وقال :

— لقد نهب كلَّ شيء وفرَّ هارباً !

بقي نجيب وفريد في مكانهما لا يبديان حركة وقد شعرا بأنه من العبث أن يدافعا عن بطرس .

ثمَّ تأوَّه فريد وقال :

— يا لله ! بأي حزنٍ ستتلقَّى السيدة بطرس هذا النبأ المشؤوم ؟

فأجابه السيد راغب :

— إنَّ لهذه السيدة يداً في الامر .

فالسيد بطرس لم يكن رجلاً شريراً بل كان محبّاً للهو، محبّاً للكسل . إلّا أنه كان في بادىء أمرهِ نشيطاً لا يدّخر وسعاً في إرضاء رؤسائه ، وكان طمّاعاً يرغب في الحصول على وظيفةٍ سامية في الشركة ؛ ومع كلّ هـذا كان يستهون العمل فيسدّ بذكائه ورشاقته ما كان ينقصه من الغيرة والاجتهاد .

ربي بطرس في كنف عمّ كاهن قديم فاستقى منـه شعائر مسيحية صالحة ، ولو عرفت امرأته كيف يجب أن تتعهد نفسه وتمحو سيئاته بارشاداتها لكان رجلاً كاملاً .

آه ! أفٍّ من النساء الخياليات ، النساء المختلطـات ، اللواتي لا يعرفن

واجباتهنَّ نحو أزواجهنَّ فيستسلمن الى الاهواء ويطفئن ايمانهنَّ غير مكترثات للعواقب الوخيمة!

آه! انَّ هؤلاء الجاهلات يمهّدن لهنَّ مستقبلاً ملؤه الدموع والدماء!

فضرب نجيب يداً على يد وقال متأوّهاً:

— يا للأسف! ماذا يحلُّ بهذه المسكينة التي لم تتعوَّد مصائب الحياة اذا لم يرجع بطرس ويندم على ما فعل؟ ماذا يحلُّ بها وبولديها اذا تركها تتخبَّط في ظلمات المصائب التي تنتظرها؟

ففكَّر الرئيس هنيهة وقال:

— إنَّ من الواجب أن نسعى لمساعدة هذه العائلة المسكينة؟ فلو عرفنا أين هو بطرس وأعدناه الى وظيفتهِ قبل أن تتبلّغ الشركة أمر هربهِ فتطردهُ لقمنا بهذا الواجب بأسرع ما يتّسع لنا؛ فالسيد بطرس رجلٌ طيّب وما دُفع الى هذا العمل إلّا في ساعة جنون طرأ عليهِ، ولا أظنّهُ يتمنّع عن الرجوع الى صوابهِ اذا نصحهُ صديقٌ مخلص وخاطبهُ بلغة العقل الصائب.

يجب أن تقوم بهذا الواجب يا نجيب.

— إن بطرس لم يترك لنا عنوانهُ يا سيدي المدير، فيتعذّر علينا اكتشاف مقرّه وتذهب مساعينا أدراج الرياح.

— من يعلم؟ ربّما نتوصّل الى معرفة ذلك بواسطة امرأتهِ؛ فهي تجهل كل شيء، ولكنها تعطينا تعليماتٍ صحيحة عن عادات زوجها وعلاقاتهِ، وعن الاصدقاء الذين يعرفهم في «صوفر» أو في «عاليه أو في «بيروت».

***

عندما رأت السيدة بطرس أن زوجها لم يحضر مع العمّال الذين ذهبوا للبحث عنهُ قلقت قلقاً شديداً وقالت :

— لماذا تخفون عني حقيقة الامر؟ . . . فهل حدث لبطرس حادث مشؤوم ؟ أجيبوا حالاً ! فهل هو مريض ؟ . . . أو جريح ؟ . . .

فأدخلها الرئيس الى مكتبهِ وبعد أن هدّأ خاطرها أطلعها على كلّ شيء، فصرخت المرأة الجميلة قائلةً :

— لا سيدي إنَّ زوجي لرجلٌ شريف فلا يرتكب مثل هذه الفظاعة !

فتنهّد الرئيس وقال :

— عسى أن يصدق ما تقولين !

فتحولت السيدة بطرس الى الحاضرين وقالت لنجيب :

— مالي أراك لا تنتصر لبطرس يا نجيب؟ ألست أعلم بهِ من سواك ؟

— إنَّ من ينتصر لرجل يا سيدتي يجب عليهِ أن يتحقّق براءته. أنا لا أجهل أنَّ أهواء النفس تعمي أبصار الرجل أحياناً وتخنق فيهِ صوت الضمير والعقل! ولا أنكر أننا معرَّضون جميعاً للوقوع في مكايد الحياة.

وهذا ما يمنعني عن أن أحتقر زوجك أو أدينهُ ؛ إلّا أنني أتكلّم فقط عن حادثٍ وقع وهو أن بطرس قد هرب هذا المساء . . . وترينا نجتهد في إخفاء الامر عن الشركة ونسعى لاكتشاف مقرّ زوجك وإعادته الى وظيفته ؛ ولكن نحتاج الى إشارةٍ منك . . .

واستطرد الرئيس قائلاً :

– أجل ، فاطلعينا على حالة زوجك في الايام الأخيرة ، ومَن كان يعاشر في جونية .

لقد قال لي رفيقه في المكتب إنه كان يكتب رسائل عديدة . أكان يحبّ أولاده ؟ أكان يهتمّ بهم ؟

– أجل ، كان يذهب الى جونية وكان يحبّ أولاده ، إلّا أنه لم يكن يقبلهم لقذارة ثيابهم .

ثمّ إنه كان لا يجد شيئاً في البيت يتفق مع ذوقه وكنت لا اقوم بعمل يرضيه فيغضب عليّ ويشتمني . كان يعتبر كلّ ما يلذّ لي جريمةً فيأخذ عليّ قراءتي الروايات وانهماكي في التطريز .

أمّا أغنياته الدائمة فكانت :

ما هذا الخلل في البيت ؟ . . . ما هذا الافراط في المعيشة ؟ . . . ما هذا التهاون ؟ . . .

وكنت قد تعوّدتُ احتداده وغيظه فلم اكترث لشتائمه مهما كانت شديدة !

آه ! ما كنت أدري يومَ ذاك أنه أصبح يميل شيئاً فشيئاً عن تعلقِهِ بي وبولديه وأنه يبحث عمّا يُسليه بيتهُ ويبغضهُ عائلته !

ولكنْ لا أصدق ذلك ، فالذي ينهج هذا المنهج يجب أن يُعدم حاسّة الشرف والضمير ! إنني أعرف زوجي حقّ المعرفة فهو لا يرتكب فظاعةً كهذه ! ويتركني عرضةً للمصائب مع ولديّ الصغيرين ! . . .

قالت ذلك وانطرحت على مقعدٍ من جلدٍ أخضر قرّبهُ اليها رئيس المحطّة واستسلمت للبكاء والشهيق فجعلوا يلاطفونها ويهدّئون روعها إلّا أنها لم تتعوّد في حياتها أن تسطو على تأثراتها وتدفع المصائب بروح صلبة ورباطة جأش ، فأخذت يداها تضطربان اضطراباً شديداً واهتزّ جسدها من

قته الى قدميه، فخشي الحاضرون أن يُصيبها نوبةٌ عصبيّة فحملوها الى منزلها حيث بقيت جاراتها ساهرات أمام سريرها طيلةَ الليل .

في أثناء ذلك تفقَّد الرئيس ونجيب دفاتر بطرس واوراقه فثبت لهما أنه صحب معه مبلغَ أربع مئة وستين فرنكاً كانت في صندوقه، فقال الرئيس : « ليس في الأمر فرار فقط بل سرقة ! . . . فأنا مضطرٌ الى التصريح بها أمام الشركة ! مسكينة هذه المرأة، فسيلحق بها وبولديها عارٌ عظيم فوق أحزانها وتعاستها . . . »

في تلك الآونة كان فارس واقفاً لا يتكلم إلّا بما يراه مفيداً فعندما سمع كلام الرئيس قال :

ــ ألا ترى أن في أكياس العمّال ما يضارع مبلغ أربع مئة وستين فرنكاً ؟ وأننا نُعدَمُ الشعور اذا لم نجتهد في جمعها لانقاذ شرف هذه العائلة المسكينة ؟

فقال نجيب :

— لقد كان بطرس التعس رفيقاً لنا ؛ ففكرتك جميلةٌ يا فارس وشريفة، وسأقوم بجمع الجبوة بنفسي

فقال الرئيس وقد أغرورقت عيناه بالدموع :

— إنَّ من العزاء أن يصادف الانسان في طريقه قلوباً شريفةً كقلوبكم يا أصدقائي ! أجل لقد أصبتم ! فلنعطف على البؤساء ؛ ولننحنِ فوق المصيبة بعاطفةٍ ملؤها الاحترام . قم بجمع الجبوة يا نجيب، والذي تحتاجون اليهِ لاكتمال المبلغ يدفعه لكم رئيسكم القديم . . .

كان الهزيع الثاني من الليل قد فات، ولكن لم ينم أحدٌ في منزل العملة إلّا السيدة بطرس المسكينة تحرسها جاراتها ويعتنين بها

هزَّ نجيب كُمَّ العمّال فتناثرت الدريهماتُ من أكياسهم، تلك الاكياس

التي تحتوي على التقتير القليل ! إذ إنَّ مجرى الإخاء كان قد تدفق من جميع القلوب الورعة . عند هذا أخذ نجيب المبلغ ونزل الى المحطّة ليضعه بين يدي السيّد راغب فتبعه فريد وقال له :

— أودُّ أنا أيضاً أن أهب حصّتي ، فخذ كل ما في كيسي !

فتوقف نجيب وشخص الى الولد بنظرات ملؤها الاعجاب وقال :

— أجل يا عزيزي فريد ، إنَّ ما صنعه العمّال هذا المساء لعملٌ شريف ! ما ضرّنا إذا كانت حياتنا ضيّقة بائسة وأفكارنا لم تنبت في المعارف والعلوم ففي قلوبنا شعائر ترفعنا الى مستوى أسمى من مراتبنا ، وتضعنا في أوجٍ عالٍ لا تبلغ اليه حظوظنا !

٤

مرّت أيام عديدة لم يظهر بطرس في خلالها . وفي ذات يومٍ تلقت امرأته كتاباً من بيروت جاء فيه انَّ خلل بيتها دعاه الى النزوح الى أميركا حيث مهّد له أحدُ أصدقائه مركزاً يليق بهِ وأنه لا يعود الى لبنان قبل مرور عشر سنوات

وبعد أيام جاء أهل السيدة بطرس الى جونية ليأخذوا اليهم ابنتهم وولديها ، فعندما عرف الاب وهو في العقد السابع من عمره تفاصيل الحادثة أخذ يبكي حتى انتحب وقال :

— إن الاربع المئة والستين الفرنك سَتُرجع اليكم بكاملها ، إلّا أنني أطلب منكم مهلة لوفائها ، فأنا طبيبٌ لا أملك مالاً وعندي بنتانِ لا تزالان في البيت ! آه ! يا أصدقائي ، إنكم سعداء ببناتكم فهنَّ يشتغلنَ ويساعدنَ

آباءهنَّ العجز اذا لم يتوفقنَ الى أزواجٍ صالحين. أمّا نحن فبناتنا لا شاغل يشغلهنَّ الّا التطريز والعزف على « البيانو » حتى يصادفنَ الفتيانَ الاغنياء وهؤلاء يميلون غالباً عن اللواتي لا مَهرَ لهنَّ

تركتْ السيدة بطرس جونية في منتصف شهر أيار قبل أن يخلف أحدٌ زوجها في وظيفته. فأخذ فريد على عهدته القيام بالوظيفة غيرِ عابئٍ بالاتعاب والجهود التي تُستوجَب لذلك. فكان المدير يقول له:

— إنَّ حميّتك لا تلبث بدون مكافأة يا فريد، فالمفتّش يتفحّص عنك كلّما زار الادارة وستجازى عن قريب جزاء تستحقّه غيرتُك ونشاطك.

كان الفتى يجتهد في عمله ويسعى في إرضاء رؤسائه بما أُوتيه من الحذاقة والنشاط؛ وكان وهو في مكتبه يفتح من حينٍ الى آخر درجاً سريّاً ويأخذ منه كتاباً من الشعر يضمّ نخبةً صالحة لاكبر شعراء العصر. كان فريد قد استظهر معظم هذه الابيات الرقيقة، وبما انه كان يستعذبها عهد اليها بكنزهِ الثمين وهو زهرةٌ ذابلة وضعها بين طيّات الكتاب ففاحت عطورها وامتزجت بأشذاء الارواح المتنقلة بين سطوره

كانت هذه الزهرة ذخيرته الوحيدة التي بقيت له من ابنة اديب فكان يقبلها قائلاً:

— أتُراها تحبني؟ أتراها تعطف عليَّ؟

فهذه الزهرة الذابلة كانت تكفي لأن تنير مكتبةُ الساكن في ليالي الربيع وتضيءَ في ظلمات حياته المملّة المتعبة! إلّا أنَّ فكرةً أليمة كانت تُعذّبه وهي أنه لا يجرؤ أن يكاشف الفتاة بسرّهِ!...

***

جاء عيد العنصرة فتأهب الزائرون صباحَ الاثنين وذهبوا لحضور القداس في كنيسة «سيدة حريصا» وكان بينهم السيدة فارس واولادها والسيدة اديب وزوجها ومعظم عملة السكة الحديديّة ؛ فعندما بلغوا الى قمّة الجبل تراءت لهم الكنيسة مشرفةً على وادٍ من أخصب أوداء لبنان تتخلّلهُ المياه الزرقاء وتضيع بين الادواح المسنّة في مطارح الحقول !

إنتهى القداس فجلس الزائرون على الاعشاب أمام الكنيسة ليتناولوا طعامَ الصباح، وكانت الطيور تزقزق على الاغصان فتمتزج نغماتُها برقرقة المياه في الجداول الصغيرة

وعندما أوشكت وليمة العملة أن تنتهي بسط لبيب راغب بضاعة الحلويات أمام أصدقائهِ

في تلك الآونة كانت الفتاة ابنة اديب زاهرةً زاهية، وكانت عيناها المخمليّتان ترسلان الى قسمات وجهها الجميل أشعّةً صفراء ذهبيّة. أمّا فريد فكان ينظر اليها سرًّا وقلبه طافحٌ سرورًا وغبطة فيقول في نفسه :

— إنها لا تعرف ما إذا كانت تحبني أم لا، ولكنْ يخيّل لي أنها ستحبني عن قريب

فرغ الجميع من الطعام فتاهوا في الحدائق الكثيفة بين الصخور والكهوف التي تكتنف الكنيسة. كانت الكهوف مظلمة باردة، فدخلت الفتاة الى أحدها ولم تكد قدمها تلامس حجرًا باردًا حتى صرخت مذعورةً وأخذت يد فريد الذي كان واقفاً الى جانبها وقالت له :

– إنني خائفة يا فريد فاحرس عليّ!

فقال لها بصوتٍ خافت تراوده نبراتُ عاطفةٍ صحيحة:

– لا تخافي فأنا هنا!

وكانت يدُ هذا المنقذ تضطرب اضطراب الورقةِ في يد الفتاة! فقالت له:

– إنك تضطرب يا فريد، فهل انت خائف مثلي؟

– آه! ألا تدركين أنَّ للاضطراب يحدث أحياناً من شدَّة الفرح؟

فقادته الى خارج الكهف وبأسرع من الوميضة أفلتت يدها من يدهِ وركضت الى أمها ثمَّ أخذت تقفز مع الفتاة للزرقاء وشقيقيها الصغيرين

ففكَّر فريد في نفسه وقال:

– إنها تحاول أن تخفي ميلها ولكنها فهمت رغبتي. آه! بأيّة ثقةٍ وهبتني يدها! بأيّة عذوبةٍ كلّمتني وبسمت لي! إنَّ هذه البسمة لا تقدر أن تخدعني... فهي تحبني!...

ولكنْ، بعد مرور ثوانٍ قلائل، في حين كان فريد يسرّح احلامه التائهة في مطارح الاشجار أبصر فتاةً في ميعة عمرها جالسةً على قدم شجرة والى جانبها فتى جميل ساجد على قدمٍ واحدة يعلّق زهرةً حمراء بين شعورها الحالكة. وسمع الفتاة تقول له: «إذنْ فأنت تحبني من عهد طويل؟ أعد على مسمعي ذلك!»

– أجل، أحبك! أحبك من عهد طويل! فيجب عليك أنْ تنتظريني بضع سنوات حتى أكمل دروسي؛ فستمسين امرأتي يوماً! امرأتي الحبيبة!...

فابتعد فريد منكسر القلب لأنهما كانا لبيب راغب وابنة اديب!

٥

بعد مضيٍ وقتٍ قصير من ذلك التاريخ طلب جميل هاني الموظفُ الثاني يدَ الفتــاة ابنة اديب ، وكان شاباً حسن الذوق لــيّن العريكة في السادسة والعشرين من عمره تعلّقت بهِ عائلة اديب وتوسّمت فيهِ عريساً صالحاً للفتاة؛ إلّا أنَّ هذه رفضت طلبه بالرغم من توسّلات أهلهــا و إصرارهم ، فتركوا لها فرصةَ اسبوعٍ تفكر فيها ولـكنها صرّحت لهم بأنهُ من العبث أن تتّحد به فقطعوا الرجاء

عندما قُطِعَ بالفتى أحسَّ بانَّ شعائره قد مسّت فهجر منزل عائلة اديب وسكن عند بوليت، فأثار هذا المنهجُ مكمن الاستياء من صدور العملة فقالوا للسيدة اديب

— إنَّ ابنتك قد أخطأت خطأً عظيماً لأنها لن تجــد أفضل من جميل هاني زوجاً لها؛ ثم إنَّ منهجها هذا يدفع الجميع في جونية الى أن ينسبوا اليها الكبرياء. إنك تدلّلينها كثيرًا يا سيدة اديب وتتعهّدينهــا كما يتعهّدون الملكات فلا تدعينها تغسل الصحون بيــدها مخافةَ أن تسودَّ أو تتجعّم ؛ كوني على ثقة بانَّ طالبي الزواج يعرفون ذلــك ، ويعرفون أيضاً أن فتاةً نشأت على مثل هذه التربية لا تلبث أن تُصبحَ معجرفةً متصلّفة ؛ ولا يجهلون ما يتوجب لها من الحليِ والزينِ وأنَّ ابنةً ساذجة مقتصدة أفضل بـكثيرٍ من ابنةٍ لا تعرف جمالًا إلّا جمالَ البهرجةِ الفارغ . . .

فلم تـكترث السيدة اديب لهذا الـكلام فأجابتهم :

— كونوا على ثقةٍ يا أصدقائي بانَّ ابنتي لا تُعدم قريناً صالحاً . أفلا ترون الفتيان يتسابقون الى منزلنا ويُحيطون بهــا إحاطة السوار بالمعصم ؟ فهــذا

شكيب النجّار وعيسى الموسيقي واسكندر أبنُ الحلّاق، فما على أبنتي إلا أن تومىَ باصبعها لتحظى بالذي ترغب فيه؛ إلّا أنها لم تكترث مرّة لهؤلاء الثلاثة ولم تحدثها نفسُها يوماً بان تلتفت اليهم التفاتةً واحدة

***

مضى عامٌ كان نادرَ الشتاء فيبست مزروعات اديب وحلّت بهِ خسائرُ جمّة حتى أضطرّ الى بيع أراضيه لوفاء ديونه، عند هذا تحوّل المحبّون عن الفتاة لأنها أصبحت بلا مَهر فقالت امّها ذات يوم:

— إنّ أبنتنا تهزل من يوم الى يوم! آه! ما ضرّنا لو أزوجناها قبل هذه الحوادث التي طرأت علينا! ما ضرّها لو أقترنت بجميل هاني!... إنها لتخاف المستقبل فتضعف وترقّ...

لا، إنّ الفتاة لم تكن تأسف على تحوّل القرويّين الفتيان عنها بل إنّ حسراتها كانت بسبب لبيب راغب الذي كان قد ترك المدرسة منذ الصيف الماضي ليتابع دروسهُ في بيروت

كانت الفتاة ابنة اديب قلقة البال لا يهدأ لها روع ولا يقرّ لها قرار فتشجعت ذات يوم وذهبت الى السيدة فارس واطلعتها على سبب حزنها ثمّ قالت لها:

— أودّ أن تكتبي اليه وتسأليه عمّا عزم أن يفعل. ألم يطلب مني أن انتظره؟ لقد أنتظرتُه ورفضت أيدي الطالبين لأجلهِ!

أمّا السيّدة فارس فلم تتردّد أن كتبت له كتاباً رصيناً، وبعد أيام قلائل جاءها جوابٌ مطوّلٌ مبهم، هذا فحواه:

سيدتي الفاضلة.

« لا يمكنك أن تتصوّري كم كانت مفيدةً لي نصائحك وتوبيخك ، فأنا أستحقّ بعضها ولي حاجةٌ قصوى بالبعض الآخر. أجـل ، كنتُ رصيناً يومَ « حريصا » وكنتُ أُحبُّ الفتاة أو بالحري كنتُ أعتقدها حبّاً تلـك العاطفة المضطرمة التي تأجّجت برهةً في مخيّلتي الحديثة. في ذاك العهد كنتُ لا أزال في مدرسة جونية وكنتُ لا أعرف فتاةً الّا تلك الابنةَ اللطيفة التي كانت رفيقةَ حداثتي ، فضلاً عن أنني كنتُ أجهل متطلّباتِ الحياة فلم أنظر اليهـا بسوى مقلةِ شاعر لا يدرك عواقب الامور. إلّا أن الاشهر القليلة التي صرفتها في بيروت بين فتيانٍ اكثر حكمة ودرايةً منّي فتحت ليَ غلفَ عينيَّ وأرتني حقيقةَ الحياة كما هي لا كما يتصوّرها الخياليّون. أجل يا سيدتي ، إنَّ اتحـادي مع الفتاة ابنة اديب يكون سبباً لشقائي وشقائهـا وحجرَ عثرةٍ في طريقي وطريقها لأنَّ ذوقي لا يتفق مع ذوقها وأفكاري لا تتفق مع أفكارها ، فابنة اديب جميلة وجذّابة عنـد العملة في جونية وليس في قاعات بيروت ومنتدياتها ؛ فالافضل أن نضع حدّاً بيننا وأن يتّجه كلٌّ منّا الى الوجهـة التي قُدِّرتْ له. أشكرك يا سيدتي على تكرمك بان تكوني صلـةً بيني وبين الفتاة لا تُعدم وسيلةً من أن تقول لهـا الحقيقة وتعزّيها. قولي للصديقة ابنة اديب لتنسيني !...

فتنهّدت الفتاة وقالت في نفسها :

— آه ! أجل ، سأنسى ! سأنسى بسرعة !

كان الغضب يثور ثورته في مكمن عواطفها ، ذلك لأنّها انتظرتهُ مدّةً طويلة وكانت تبني عليه آمالها الكبيرة وتتوسّم في زواجها حيـاةً ملؤها السعادة والهناء. فأحبطت تلك الآمال في ساعةٍ واحدة وتهدّمت مباني أحلامها خشبةً خشبة !

أجل ، نحلت الفتاة الجميلة فتحوّلت عنها نواظر العشّاق في حين كانت رفيقاتها القرويات قد زففنَ معظمهنَّ الى فتيانٍ صالحين وبقيت هي رهينة البيت ، هي التي طالما خسفهنّ جمالها !

ذات يومٍ كانت تتيه في ساحة المنزل فسمعت أحد الناس يقول :

— فتاة بلا مهر فتاةٌ بلا راغبين ! . . .

فتأوّهت وقالت في نفسها :

— إذن فلا حبٌ في هذه الحياة ؟ أليسَ مَن يحبني ؟ . . .

وفجأةً مرّت على وجهها أخيلة فكرةٍ فقالت :

— بلى ، فريد ! إنّهُ لم يفاتحني بذلك ولكني تبيّنت حبّه مراراً !

ثمّ أسرعت اليه فرأتهُ منحنياً على جدولِ ماء يركز دولاباً أزاحه التيّار عن مكانه فنادته بصوتٍ خافتٍ فالتفت اليها فقالت له :

— لقد سقطت ثمار الخوخ تحت الشجرة ولم أملأ سلّتي هذا المساء فتعال ساعدني يا فريد لئلّا يعتقد والدي أنني أتهاون في عملي !

قالت ذلك وتواريا في الروض المجاور . كان الروض ملآنَ بأقفار النحل يفوح منه أرجُ العسل والسكّر ، وكانت أغراسُ القرع الأحمر ترحفُ على الحضيض الجافّ ، والحراذين العديدة تركض بين الحجارة والصخور وتتسلّق الجدران ذات الالوان الذهبيّة . فعندما بلغا الى شجرة الخوخ وضعت الفتاة سلّتها على الارض وجلست على جدار صغير بدون أنْ تكترث للثمار وقالت :

فريد ! فريد ! إني شقيّة تعسة ! . . .

ثمّ أطلعتهُ على كلّ شيء بجرأةٍ غريبة واستطردت قائلةً :

— لقد أصبحت أحتقره وأبغضه ، ولا أريد أن أسمع عنه شيئاً ! . . . ولكنْ حالتنا الرقيقة أبعدت عني كلَّ محبٍ ، حتى أصبحت يائسةً من الزواج !

فتمتم فريد بصوتٍ مختنق قائلاً :

— أمّا انا فاعرف واحداً يحبّك ياحضرة الفتاة !

فاجابته محدّقة فيه :

— هذا أنت ! لقد حزرت ذلك قبـل الان . . . فاسمع : أنت لا تزال حديث السنّ يا فريد وعمرك لا يزيد عن عمري اكثر من سنة واحدة ؛ فيجب عليَّ ان اصبر حتى تعود من الجندية . إلاّ أني لا اجهل خصـالك الشريفة ومزاياك ، فهي اسمى من جواذب لبيب راغب المتكبر ، تلـك الجواذب الخارجية التي لا جوهر لها ؛ نعم ، إني بحاجة الى حبك يا فريد ! . . . فمدَّ لي يدك واتخذني خطيبة لك ! . . .

ثم بسطت لهُ يدها فأخذها بيد مضطربة وعيناه تنثران الدموع وقال : أنت خطيبتي ! أنت خطيبتي ! . . .

وكانت اسراب النحل توارت في الفضاء المعطّر بنكهـة الثمر والخوخ المتساقط من الاشجار .

٦

باع اديب أراضيَهُ الواسعة وكرومهُ العديدة ولم يبقَ لهُ إلّا بقعةٌ صغيرة من الارض عزم أن يشتغلها مـع امرأتهِ ؛ عند هذا أُلقيت مصالح البيت على عـاتق الفتاة ، فاضطرّت أن تقوم بغسل الصحون وتنظيف النوافذ ونشل الـدلاء من البئر حتى إنها سئمت هذه الحياة التي لم تتعوَّدها فأصبحت تغفل كنس بعض الزوايا القذرة وترتيب الثياب وإعداد الاواني ، ولا تنتبه الى ملحوظات أمها في ذلك .

أمّا الفتيات فكنَّ يستغربنَ تودُّدهـا الى فريد التي كانت تزدريـهِ فيما مضى فيقلنَ في نفوسهنّ :

— إنَّ فقرَ والديها بدّل طباعها القديمة وقادها الى الادراك ، فأطماعها الماضية قد انطفأت اليوم وأصبحت لا تنظر إلى أعلى من مستواها .

وأما جميل هاني الذي لم يكن قد انتهى اليه اتفاقها مع فريد فقد حاول أن يعود الى التحبب اليها .

ففي ذات يوم بينما كانت الفتاة واقفة في غرفة الانتظار في المحطّة تترقّب حضور البريد فُتح الباب وبرز منهُ رأس جميل هاني ، فانفتلت الفتاة من مكانها إلّا أنهُ تقدَّم اليها باسماً وقال :

— لماذا تتبرّمين منّي يا حضرة الانسة ؟

— لانك حردتَ عليَّ منذ سنتين .

— لا ، لم أحرد عليك مع أنهُ كان يحقُّ لي ذلك . ألم ترفضي يدي ؟ ألم تكرهي قربي ؟ ألم يزعجك وجودي في منزلك ؟

— إن أحقاد الرجال لشديدة ! والذي تقولهُ لي الان قديمٌ جدًّا يا سيد هاني .

— أمّا جمالك الذي يزداد يوماً عن يوم فليس بالقديم يا حضرة الانسة .

فاحمرَّ خدُّ الفتاة من شدّةِ الفرح وقالت :

ولكن البعض يقولون إنني نحلت وأصبحت شاحبة اللون . . .

— نعم ، وسبب ذلك هو أن من يكون في عمرك يحتاج الى سلوى ، فأنت تصرفين أيامك بالحزن والكآبة كالزاهدات . إسمعي ، فستقام في الاحد القادم حفلة لطيفة في جونية فهل تحضرين ؟

— لقد وعدني والدي بأن يصحبني معهُ .

— إذن فذكّريهِ بالوعد ولا تحرميني من الرقص معك في الحفلة .

— بطيبة خاطر .

— وهل تحقّق لك الان أنني سليم من الاحقاد ؟

— بدون شك !

عندما جاء الاحد توسّلت الفتاة الى والدها أن يصحبها الى الحفلة فنزل عند توسّلاتها فرقصت مع جميل هاني في وسط القاعة على مشهد من الحاضرين.

كان فريد في مكتبهِ يوم ذاك فلم يشهد الحفلة ؛ وكانت الفتاة قد طلبت منهُ أن يستأذن مديره ليذهب معها فأبى ذلك قائلاً لها :

— إن السيد راغب سيبقى في المحطّة ، فاذا رجوت منهُ أن يسمح لي بذلك فيشك برصانتي ويعتقد فيَّ ما لا أودُّ أن يعتقده.

آه ! كان فريد مجرَّداً من حاسة الزهو ، وكانت كلمة « الواجب » منطبعة على شفتيهِ.

أمّا جميل هاني فمع تعلّقه بوظيفتهِ وانتباههِ الى واجبهِ كان يعرف أن يعطي لكلِّ ساعةٍ حقَّها ؛ فلا يفوتهُ أن يعطي ملحوظاتهِ الى ابنة اديب ويقول لها مشيراً الى ثوبها الحريريّ : هذه الشريطة تليق بردائك وهذه لا تليق بهِ الى ما هنالك من المجاملات التي تستحسنها النساء.

أمّا فريد فلم يكن لهُ أقلّ ذوقٍ في ذلك ، فلقد قال ذات يومٍ للفتاة لبيبة :

— إنني ما أحببتك مرّةً كما أحببتك وأنت مرتدية ثوبك اليوميّ وقبّعتك الصفراء.

***

أخذت الفتاة تفكّر في أمرها منذ ذلك اليوم وقد استاءت من نفسها لانها أسرعت في إعطاء وعدها لفريد بدون أن تتروّ في الامر.

وفي ذات يومٍ شعر الفتى بأن جميل هاني أصبح يتردّد كثيراً الى منزل

اديب فجاءها غاضباً وقال لها :

إن الفتاة التي ترفض يد شابٍ لا يحق لها بعد ذلك أن تستقبلهُ في بيتها !

فأجابتهُ الفتاة :

— إن ما تقولهُ الآن لعادةٌ قديمة !

— قديمة عندك وحدك ! فلقد تراءى لي أنك تتوددين اليهِ .

— لانهُ لطيف معي يا فريد ، فهو يختلف عنك اختلافاً واضحاً ! فأنت لا تفتح فمك إلّا عندما ترغب في التوبيخ !

— يا لبيبة ! . . .

— أجل ، إنَّ اصطلاحاتك في الحب قد بدأت تزعجني يا فريد ! ثم يجب عليك أن تعرف أنك في التاسعة عشرة من عمرك ولا يتسع لك أن تتزوج قبل انقضاء خدمتك في الجنديّة . . . فأنا لا يسعني أن أبقى مدةً طويلة في منزل والدي حيث أراني أفني شبابي في العمل الشاقّ كأحقر الخادمات ! . . .

— ولكن أتعتقدين أنك تتملصين من الخدمة في بيتك عندما تتزوجين ؟

— لا أدري إلّا أنني سأكون سعيدة باتحادي مع جميل هاني ! . . .

قالت ذلك وأعطتهُ ظهرها وانسلت الى غرفتها بدون أن تكترث بهِ .

فأطلق فريد زفرةً محرقةً من صدرهِ وقال :

— لقد أصابت ! فستكون سعيدةً مع جميل ! إنها لا تحبني ! . . . فأنا فقيرٌ وسمج ! إلّا أنها خطيبتي ! ألم تعدني بالمحافظة على عهدها ؟

ثم اتجه الى غرفتهِ واتكأ على حافة نافذتهِ يفكر ! وبعد هنيهةٍ سمع لغطاً تحت شجرة الطلح فشخص الى مصدر الحركة فأبصر المدير وجماعةً من النساء بينهنَّ السيدة اديب رافعةً ذراعيها الى السماء وهي تقول :

— يا إلهي ! . . . يا إلهي ! . . .

فأطلت السيدة فارس من الباب وسألت قائلة :

— ماذا جرى ؟

فصمتت الاصوات ! وساد السكون !

فاقتربت السيدة فارس من الجماعة وقالت مذعورة :

— إنَّ في الامر حادثة تتعلق بي ! قولوا حالاً ! فهل طرأ طارئٌ على فارس

فقال لها المدير :

— هدِّئي روعك !

فقالت : « ولكن تكلم ! لا تخف ! هل طرأ طارئٌ ؟ »

— أجل ، طارئٌ !

— أطلعني عليه ! هل مات فارس ؟

— لا لم يمت ، ولكنه يطلب أن يراكم وهو الان في مستشفى « بيروت » فعجلوا بالذهاب حالاً قبل ان يفوتنا القطار .

فألحَّ النساء بمرافقتهم ولكنَّ السيدة فارس رفضت ذلك وقالت :

— لم يبق لدينا من الوقت إلاَّ خمس وثلاثون دقيقة فيجب أن تساعدوني .

فتقدم فريد من المدير وسأله قائلاً :

— كيف وقع الحادث يا سيدي !

— آه يا ولدي ، لقد امسكت الحقيقة عن هذه المسكينة ! إنَّ فارس قد أُصيبَ بجروح فظيعة في حين كان يقوم بواجبه وهو الان في المستشفى يتردَّد بين الموت والحياة ولكنَّ حالته تنذر بخطر عظيم وقد لا يمضي عليه وقت قصير حتى يسلِّم الروح !

٧

وصلت السيدة فارس واتباعها الى المستشفى فوجدت زوجها في حالة خطرة ؛ فعند ما أبصر فارس امرأته واولاده ضمّهم اليه وقال :

لست آسفاً على حياتي لانها كانت سعيدة وصالحة !

ثم التفت الى فريد وقال له :

— لقد اصبحتَ رجلاً يا فريد فانا أعهد اليك بعائلتي .

قال هذا وضمَّ الصليب الى صدرهِ الميت واستطرد قائلاً بصوت لا يزال قوياً :

— إلهي ! لقد قمت بواجبي بدون أن أفكر بهم ! . . . إلا أنني أموت مغبوطاً لاني واثق بك ، عالمٌ أنك لا تميل عنهم في طريق الحياة .

تلفظت شفتاه بهذه الكلمات وأسلم الروح !

صدرت أوامر الشركة بأن يُحتفل بمأتمهِ احتفالاً مهيباً ، فمشت فيهِ الجموع المؤلفة من رؤساء الشركة ومديري مكاتبها وتلامذة الفنون والجمعية الكاثوليكية بأعلامها ؛ وكانت الاكاليل تتراكم فوق الاكاليل وقد كُتب على بعضها هذه العبارة الملأى بالشعور الحيّ والاقرار بالجميل :

« الى الشهيد الذي مات في سبيل إنقاذنا ! »

مشت الجموع الغفيرة في هذا المأتم حاسرة الرأس خاشعة الطرف وعندما وصل الموكب أمامَ المحطة لفظ رؤساء الشركة مراثيهم في حين كانت امرأة الميت وابنتها وولداها يصغون الى المراثي بخشوع واحترام وقد أمسكوا

الدموع مهابةً وإجلالاً مخافة أن يدنّسوا بها هيبةَ البطولة الراقدة.

وقف الرئيس أمام عجلات القطار الملأى بالزهور وصرخ قائلاً :

— إن هــذا البطل الشهيد لم ينل وسام الشرف ولكنْ حسراتكم واعجابكم قد دفنتهُ في كفن المجد. أجل، إن التضحية في سبيل الواجب لاعظم رمز من رموز البطولة؛ وموت هذا الرجل الباسل أحقّ بالاكرام من موت الجنديّ في ساحة القتال!...

عندما وقف القطار أمام محطّة جونية انطلقت الدموع من العيون والزفرات من الصدور في حين كان القرويّون والقرويات يلقون الازهار على التابوت وقد قطفوها من حدائقهم وسهولهم.

وبعد ساعـةٍ حُملت الجثّة الى مقبرة القرية حيث وقف الرؤساء ثانيةً وودّعوا الراحل بمراثٍ مؤثّرة!

إلّا أنّ راغب تقدّم الى الحفرة وعلى محيّاه أمارات الاسى يعلوها اصفرار غريب ورفع رأسهُ في الشعب ثم بسط ذراعه فوق الضريح وقال بصوتٍ تخلّلتهُ الدموع :

— وداعاً يا فارس! وداعاً أيها البطل! وداعاً أيها الصديق! ليس الرؤساء أو الرفاق هم الذين يبكون عليك الان بل الاخوة المحبون، الاخوة المعجبون! إنّا آسفون عليك من صميم أفئدتنا ولكننا من صميم أفئدتنا مفتخرون! أنتَ راحـلٌ الى حيث تكافأ كفاءً يليق بك، بعد أن تركت لنا مثلاً شريفاً يقوّينا على التمسّك بالواجب! لا يا فارس إنّ العملة الذين يحيطون بك الان لن ينسوا تضحيتك العظيمة الملأى بالامثولات الصالحة. إرحل!... فلقد وفّيت ما عليك للمجد، وبذرت بذور الجهاد المقدّس في صدور إخوانك!... وداعاً يا فارس فلقد عرفناك حقّ المعرفة وأحببناك!...

٨

« لقد أصبحت رجلاً يا فريد ، فأنا أعهد اليك بعائلتي ! » هذه الكلمات التي تلفظ بها فارس الميت أقلقت بال فريد قلقاً أليماً ! « أعهد اليك بعائلتي ! » عبارةٌ مريبة رسمت هـذا الولد الفتى أباً عائلةٍ وهو في التاسعة عشرة من عمره .

إن يتيم أَمس ، ذلك الفقير المعدم ، أصبح اليوم مضطراً أن يدفـع الى عائلتهِ المتبنيَّة ذلك الدين الثقيل ، دين العرفان بالجميل ! فكان يقول في نفسهِ :

يجب أن أفرح ! فعندما كنتُ في الثانية عشرة وهبت كلَّ ما لديَّ للعالم ليتَّسع لي يوماً أن أعضد عائلة فارس وأقف لها حياتي وقواي ! لقد سنحت لي الفرصة اليوم ؛ فذاك المحتضر عهد اليَّ بعائلتهِ فيجب أن أحقق أحلامي الماضية ولو قامت دونها مصاعب الحياة ! . . .

رضي فريد بكل هـذا فأضحى يحافظ على عائلة فارس محافظة الوالد على أولاده ؛ عند ذلك شعرت الفتـاة لبية بأنهُ فقير لا يملك شيئاً ، وأن على عاتقهِ حمـلاً ثقيلاً ربما ينوء تحته فأخذت تميل عنهُ شيئاً فشيئاً لانها ترغب في البهرجة عن الحياة الساكنة !

أيعدل الفتى عن ابنـة اديب أم يخون عهده وينكث بوعده للميت ؟ فكرةٌ طالما تنازعت فريداً الصغير وهو مستغرق في تأملاتهِ ! فكرةٌ طالما أسهدتهُ الليالي وحيداً على حافة سريره !

آه ! إن الشباب ليحتاج الى بعض السعادة في حياتهِ !

ففي ذات يوم بعد أن قهر الولد نفسه وانتصر على تلك الانانيـة التي

تزحف حتى الى النفوس الكريمة الطيّبة التقى بلبيبة وأرجع لها وعدها .

وعندما اختلى بنفسهِ قال :

أية جريرة أقترف اذا قلت لها : « لقد أصبح من الصعب عليَّ أن أقترن بك وأكون لك زوجاً لانني رضيت بأثقال تلك العائلة ؟ » ثم عاد الى نفسهِ فقال :

واذا بقيت تحبني ؟ اذا قالت لي بكل ما في قلبها من الالم : « اذا حقَّ لك أن لا تضحّي بنفسك فهل يحقُّ لك أن تضحّي بي ؟ » اذا قالت ذلك فماذا أجيب ؟ »

أجل ، كان لا بدَّ للبيبة أن تقول ذلك لو كانت تحبُّ فريداً ، ولكن هذه الفكرة لم تخطر لها ، فاحمرَّت وتضايقت عندما سمعتهُ يحطّم قيودَ حبهِ بكلماتهِ النهائيَّة ، تلك القيود التي حطمتها قبلهُ في ساعةٍ من ساعات كبريائها ! ولكنها قالت لهُ :

— إنك مديون بكثيرٍ من الواجب لعائلة فارس ! . . . ولا يمكنك أن تتملَّص من وفائهِ ! . . . وعندي أن من الجبانة والجحود ألاَّ تقوم بوعدك وتساعد هذه العائلة المنكودة ، فالرجل أفضل لهُ أن يضحّي بسعادتهِ من أن يرفض تتميم ما عليهِ من الواجبات المقدَّسة !

ثم أضافت الى ذلك قولها :

— أنا لا أجهل أنك كنت تحبني . . . وأثق كل الثقة بأنك تسعدني لو اقترنت بي .

فتشجع فريد وأجابها :

— إن لك من يحبك غيري ، فتقدرين أن تتزوَّجي جميل هاني فهو قد أنهى خدمتهِ العسكريَّة ويستطيع أن يقترن بك بوقت قريب . . .

— آه ! أتوسَّل اليك ألاَّ تُعيد على مسمعي مثل هذا الحديث !

كانت حركاتها تحاول أن تخدعهُ بالحزن إلَّا أنَّ بريق عينيها كان يخون حالة نفسها فتلمع فيهِ هذه الكلمات: «لقد كنت حاجزاً لي وحجر عثرةٍ يا فريد! أمَّا الان فقد انسحبت من طريقي لان الشرف والواجب أوجبا عليك أن تنسحب! لقد أصبحت حرَّة بفضل شرفك وواجبك، فأود أن أتزوَّج بأسرع ما يمكنني فلقد كفى بنات جونية هزءاً بي!...»

عرف فريد أن يقرأ ما في عيني الفتاة إلَّا أنهُ هرب من أمامها منكسر القلب دامع المقلتين!

***

بعد مرور أيام قلائل طلب فريد إحالته من وظيفتهِ إلى وظيفةٍ أسمى فقال لهُ المدير:

أصبت يا عزيزي فقد حقَّ لك أن ترتقي في مهنتك بعد أن خدمت في جونية خدمةً نشكرك عليها ويشكرك جميع رؤسائك؛ فاكتب طلبك لاصدق عليهِ وأساعدك بكل ما يتَّسع لي.

كان فريد شديد الاضطراب فرغب أن يهجر جونية قبل أن يأذن وقت خطبة لبيبة؛ وعندما أطلع السيدة فارس على عزمهِ النهائي وأخبرها أنهُ ضمن مستقبله عاد الى حزنهِ واستسلم للآلام الشديدة! إلَّا أنهُ شعر بعد ذلك بحاجتهِ الى المواساة فاتجه ذات مساء من أيام الخريف الى قبر فارس ليبحث عن عزاء هناك.

كانت المقبرة الصغيرة قائمة في وسط حقل قريب من القرية وقد تخلَّلتها الصلبان السوداء وحفت بها الاعشاب المزهرة وساد عليها سكون مهيب!

سجد فريد أمام الضريح حيث حفرت هذه الكلمات:

هنا يرقد فارس الذي مات موت البواسل .

لقد نسي نفسهُ لينقذ الغير ، فالله لن ينساه ؛ فليرقد بسلام !

وبعد أن صلّى فترةً قصيرة تنهّد وقال :

أيها المستريح في كنف السلام هبني قوّةً أنتصر بها على ضعفي .

أيها الرجـل الفدائي ، يا من نسيت نفسك لتنقذ الغير امنحني أن أنسى نفسي وآلامي وغرور الحياة ! ولا تضنّ عليَّ بتلك الصلابة التي تمكنني من القيام بواجبي حتى النهاية .

إيه صديقي فارس ، إن مستقبلي يتراءى لي فارغاً وحياتي لا عذوبة فيها !

ثم أجهش بالبكاء والنحيب ، وقد لـذّ له أن يستسلم للحسرات أمام الضريح وفي سكون الحقل !

كان يظنُّ نفسهُ وحيداً لا عين ترقبهُ لانهُ لم يرَ خيال ولدٍ لطيفاً يقترب منهُ بين أشجار السرو .

كان هـذا خيال الفتاة الزرقاء وقد جاءت لتزين ضريح والدها بطاقاتٍ من الازهار حملتها تحت ذراعيها .

وقفت الفتاة وراء فريد وقالت له بصوتٍ ملؤه الحزن :

— لماذا أنت تبكي يا فريد ؟

فانتبه الولد من غيبوبة الحزن وقد استغرب نبرات الفتاة إلّا أنهُ لم يلبث أن عاد الى نحيبهِ بأشدّ مما كان عليهِ ، فاستطردت قائلةً :

— لقد تغيرت طبـاعك منذ أيام يا فريد . . . فلماذا طلبت إحالتـك من جونية ؟ أيودّك أن تهجرنا ؟

— أجل !

— ولكن لماذا أنت حزينٌ الى هذا الحد ؟ ماذا صنعوا بك ؟

— أشياء لا أستطيع أن أقولها لك !

— آه ! أتظنُ أنني لم أحزر ؟ إنني في الثالثة عشرة من عمري يا فريد ! أترغب في أن أقول لك ما هو سبب شقائك ؟ هو أنك تحب لبيبة وهي لا تحبك ! . . .

— أجل ، لقد حزرتِ . . . ثم إنها تحب فتى سواي وتريد الاقتران بهِ !

— مسكين أنت يا فريد !

— آه ! لقد أخطأت بقولي لك ذلك ! . . لانك لا تدركين هذه الامور .

— بل أُدركها ، فلقد أصبحت في عمر أستطيع بهِ أن أفهم آلامك وأرثي لك .

— إن عطفك ليواسيني يا عزيزتي ، ولكنني استسلمت لآلامي استسلاماً لا يحقُ لي . أتريدين أن أُساعدك في وضع الازهار على الضريح ؟

— بطيبة خاطر ؛ ولكن أحتاج الى ماء عذبة أملأ بها آنيتي .

— إذن فاتبعيني . إن بالقرب من جدار المقبرة ساقية ماء صغيرة .

كانت الساقية مختبئة تحت أغراس الخيزران ونباتات النعنع فانحنى فريد فوق الماء الجارية ليملأ الآنية الصينيَّة وجلست الفتاة على الاعشاب وأخذت تهيىء أزهارها .

كانت أغراس المقبرة قد لامستها أنامل الخريف فغطَّت الارض بثوبٍ من الاوراق الذهبيَّة فقالت الفتاة الزرقاء :

— إذن تودُّ أن تهجرنا يا فريد ، وتترك البيت حزيناً بعدك ؟

فأجابها الفتى بشيء من الحدَّة :

— ولكن سيحتفل بخطبة لبيبة في ذلك البيت الا ، لا أقدر أن أرى تهيئة ذلك العرس ! آه يا عزيزتي ! أنت لا تدركين ما هو الحب ! . . .

فتركت الفتــاة الازهار تسقط من يدها ونظرت الى السماء بعينيها الاثيريتين ؛ وبعد أن وقفت صامتة أمـــام السر العظيم ، شاخصة الى الغيوم التائهة قالت بصوتٍ ساذج مضطرب طفت عليه عذوبة المساء :

— ما هو الحبّ يا فريد ؟

— الحبّ ؟ آه ! وهل أنا أدري ما هو الحبّ ؟ هو أن ينتظر الانسان سعادة تجعل الحياة جميلةً وعذبة ولا يجد إلّا مصائبَ وآلاماً ! هو الليل الذي يهبط بعد الفجر !

عند هذا أخذت الفتاة تفكّر ! ثم رفعت اليه نظرها وقالت :

— ألا يقدر الانسان أن يحبّ مرّتين يا فريد ؟

— لماذا تسألينني عن ذلك يا عزيزتي ؟

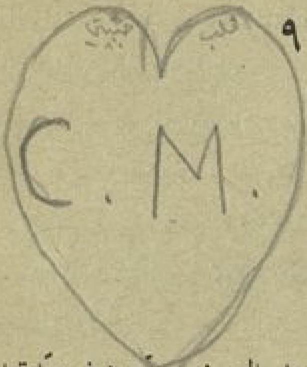
— لاني أراك لا تزال في ميعة صباك ويتراءى لي أنك ستجد في طريقك فتياتٍ يحببنك أكثر من لبيبة ! . . .

— أتعتقدين يا عزيزتي أن الفتى يستطيع أن يحبّ مرّتين ؟ لا ، إن القلب اذا وهب نفسهُ لن يرجـع عن هبته ، بل إنهُ يختبىء في حبٍّ واحد حتى اذا ما هزئَ بذلك الحبّ يجف القلب ويموت كهذه الاغراس التي يذبلها الخريف ثم يجدّدها الشتاء !

فنهضت الفتاة لتضع الازهار على ضريح والدها فتبعها فريد بدون أن يرى الدموع تتناثر من مقلتيها الزرقاوين !

مسكين هــذا الولد إنهُ لم يختبر الحياة ولم يعرف أن الله أجرى في قلب الرجل كما أجرى في الطبيعة ينبوعاً من التجدُّد لا ينضب . إنهُ لا يدري أيضاً أن الربيع يُزهر الاغصان كلّما أعراها الشتاء !

٩



— الى اللقاء !

— عن قريب !

— لا تضنَّ علينا بأخبارك !

— وفَّقك الله !

كان جمهورٌ من الموظفين واقفين على الرصيف يودّعون فريداً قبل ذهابهِ الى بيروت ليستلم وظيفته الجديدة ؛ وكان الرئيس راغب حاملاً تحت ذراعهِ علَمه الاحمر وهو يقول :

— الى اللقاء ايها الصغير ، يجب أن تسير الى الامام وتبرهن عن ثباتك وتفانيك . تذكَّر هذه العبارات الثلاث :

في القطار السريع يتجه المرء الى واجبه .

في القطار المستقيم يتجه الى رفاقه .

في القطار البطيء يتجه الى ملذّاته . . .

عند هذا تقدَّم نجيب من فريد وضمَّهُ اليهِ بعاطفةٍ وقال لهُ :

— كنت لي بمقام ابن حبيب يا عزيزي ، فسأذهب عن قريب الى بيروت لاراك .

تحرَّك القطار ، فأطلَّ فريد من النافذة فرأى الفتاة الزرقاء تبكي الى جانب أمها الكئيبة فقال في نفسهِ :

— الوداع يا أصدقائي المخلصين ويا عائلتي الكريمة ! الوداع يا ماضيَّ الجميل ! . . .

ثم أخذت المحطة تبتعد عنهُ رويداً رويداً فتضاءلت على نظره الجدران البيضاء والنوافذ الخضراء والارصفة الضيقة وقصر المياه والحديقة الجميلة حيث ترقد أحلام حداثتهِ العذبة.

عند هذا شخص الى الابعاد وعيناه تبحثان عن منزل العمَلة فأبصر السطح الاسود يتصاعد مظلماً الى سماء تشرين الملأى بالغيوم وشعاع المغيب ينعكس على نوافذ السيدة فارس؛ وتراءت لهُ شجرة الطلح العارية من الاوراق تهزهز أغصانها المستبقية على أطرافها بعض أوراقٍ ذهبية صفراء!

فتنهَّد الفتى وقال:

— إيهِ منزلي القديم! يا مأوى حداثتي وأحلامي!...

وفجأةً استيقظت في صدره حياتهُ الماضية فتذكَّر أوجاعه وأفراحه ومرَّت في مخيلتهِ آمالهُ البعيدة وأحلامهُ اللذيذة المتصاعدة من ظلمات الماضي فخيِّل لهُ أنها تُتمتم في مسمعهِ قائلة:

— أتعرفنا بعد؟

لم يكن منزل العمَلة مأوى حداثتهِ الساذجة وشبابهِ الطافح بالآمال فقط، فكم من فاجعةٍ جرت لهُ بين جدرانهِ القديمة وكم من مشهدٍ عذبٍ وحادثٍ رهيب!

شرع فريد يسمّي الرجال والنساء الذين عاشوا في ذلك المأوى واحداً بعد واحد، فيستيقظ أمامه في كل اسمٍ تاريخ طافح بالذكريات. إن تاريخ منزل العمَلة هو مختصر تاريخ الانسانيّة جمعاء.

بعد فترةٍ قصيرة توارى المنزل عن بصره؛ فنزع أفكاره من تلك التذكارات المحزنة وعزم ألّا يفكّر إلّا في وكالتهِ الجديدة التي عُهد بها اليهِ.

إن المرتَّب الصغير الذي منحتهُ الشركة لارملة فارس سمح لها أن تنتظر فريداً حتى ينهي خدمته العسكريّة.

من يدري، ربما يرتقي فريد الى وظيفة رئيس في الشركة... ربما يتوصَّل الى وظيفة مفتِّش للمعادن.

آه! كان أملهُ الوحيد أن يتمكَّن من مساعـدة أبناء السيدة فارس؛ كان أملهُ الوحيـد أن يرى بطرس ناجحاً في عملهِ، وبولس كاهناً كما تنبَّأ لهُ الاب يوحنا!

والفتاة الزرقاء، ماذا يحلُّ بها؟ آه! كان يتوقَّع لها مستقبلاً باهراً ويرجو لها زوجاً صالحاً تصرف معهُ حياتها بحبٍّ وسلام!

***

إتبع أحلامك يا فريد! فالمستقبل المبهم لن يخون أمانيك! إتبع أحلامك بنشاطٍ وحمية، فلا يعلم أحدٌ في أيّ طريقٍ يقوده الله!

خاتمة

مضت سنوات عديدة على ذلك التاريخ فانطلقت الحرب الكونيّة وأحرقت العالم بنيرانها الرهيبة. عند هذا انقلبت الاحوال انقلاباً غريباً فتطوّع الابناء في الجنديّة ليدافعوا عن وطنهم وأثكلت الامهات أولادهنّ وفقدت الزوجات معظم الازواج.

وفي سنة ١٩١٩ انتهت الحرب وعادت السكينة الى ما كانت عليهِ، فاحتفل بزفاف شابين في ميعة العمر أحدهما فتىً على صدره صليب الحرب هو فريد والآخر فتاة جميلة هي الفتاة الزرقاء.

كانت كنيسة «حريصا» مزدانة بالازهار فصعد الاب يوحنا الى المذبح وبعد أن تلا صلاة الذبيحة بارك خاتماً صغيراً صُنع من سهم قنبلةٍ لم تشأ الفتاة الزرقاء أن تأخذ غيره.

وعندما انتهت الحفلة ترك الاقرباء والمحبون الكنيسة وانتشروا على قمّة الاكمة المرتفعة؛ فتقدَّم نجيب وكان قد رجع الى وظيفتهِ في السكّة بعد أن خدم في الجنديّة وأعطى الزوجين غلافاً يحتوي على ورقة بخمس مئة فرنك وقال:

— هذه قيمة ما اقتصدت في الجبهة، فلا تشكراني عليها فأنا لم أشأ أن أتزوّج عن جهل وغباوة فاتركاني أتذوّق لذّة مساعدة الغير.

قال هذا ثم ترك الزوجين في أحلامها وعاد مسرعاً الى الاب يوحنا والسيدة فلدس وقال لها:

لقد أبصرت الموت مراراً في الحرب وأصبت بجراح عديدة فأنا الان أشعر بضعف في قوّتي وقد لا يمضي عليَّ سنوات قلائل حتى أموت. أمَّا وصيّتي فقد سجّلتها عند الكاتب العدل فهي تهب فريداً والفتاة الزرقاء كلَّ ما أملك في الحياة.

وأمَّا أنت يا سيدة فارس فاحرسي عليها بعنايتك وتعهّدي أولادها غداً بكل ما أوتيت من العطف والحنان، فسوف تستعيدين عذوبة ملاطفة الاولاد قبل أن تعتزلي في الدير حيث يقودك ابنك عندما يرتسم كاهناً...

فتفطّرت عواطف السيدة فارس ونظرت الى الزوجين الجالسين على الاعشاب المزهرة جنباً الى جنب، ثم شخصت الى ولديها بطرس التلميذ اللامع وبولس المبتدئ التقيّ وقالت متأوهة:

— آه! لماذا لا أرى فارساً بيننا الان؟... ولكن لا، فهو هنا!... أليس كذلك يا سيدي الكاهن؟ أتقدر روحهُ ألّا تكون معنا في مثل هذه الساعة السعيدة؟ آه! إن مشيئة فارس قد تحقّقت، فماذا صنعنا من الجميل حتى يكافئنا الله بهذه الحسنات؟

كان الاب يوحنا يُصغي الى كلامها بعاطفة متألمة، فعندما انتهت قال:

— إنني اتوسل الى الله يا سيدة فارس أن يزيد ويكثر في هذه القرية كل من يشبهك ويعمل عملك المقدّس! ففضائلهم الصامتة وتضحياتهم المظلمة هي قوّةٌ عظيمة من قوى الانسانيّة؛ ونحن بحاجةٍ قصوى الى هؤلاء القوم الودعاء لان عليهم يتوقّف مستقبل الوطن!

تمّت